لنا عبد الرحمن

أغنية لمارغريت

رواية

الكتاب: أغنية لمارغريت (رواية)

الكاتب: لنا عبد الرحمن

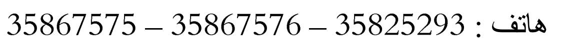
الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

عبد الرحمن ، لنا

أغنية لمارغريت (رواية)/ لنا عبد الرحمن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **7 – 446 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **13276 / 2017**

أغنية لمارغريت





*إلى يان أندريا **

بيروت، 14 تموز

من: زينب

يان..

قطرات الماء على كتفي العارية منثورة كنمش خفيف على وجه أبيض. أتركها لتجف وحدها. أنت تحب هذه القطرات. في أيام البرد تلسعني ملامسة الهواء لها، لكن الحر خانق الآن، والعثور على ماء للاستحمام في وقت الحرب أمر يرتبط بالقدَر الذي قد يرمي بك للتواجد في خيام النازحين، أو أن تكون في قلب بيت. نحن الآن في بيت مغلق، لا يأتي إليه أصحابه إلا أياماً قليلة في صيف كل عام.

الكلمات التي أكتبها في العتمة، هذه السطور التي سأكرر كتابتها غداً على جهاز الكمبيوتر سأرسلها إليك، تمدني بالقدرة على المقاومة، وعلى البقاء وسط هذا العبث.

أكتب بحثاً عنك، وعن مارغريت دوراس التي وجدت مكانها في الكتابة... أكتب كي أكتشف ماهية علاقتي بها، وبك. إذ كثيراً ما

---

*يان أندريا: الحبيب الأخير للكاتبة الفرنسية مارغريت دوراس، عاش معها **15** عاماً، كان كاتباً شاباً في الثامنة والعشرين من عمره، وكانت في الخامس والستين حين بدأت قصة حبهما. كان معجباً بنصوصها في بداية العلاقة ثم وقع في غرامها، وبعد رحيلها كتب عن علاقته بها كتاباً بعنوان "هذا هو الحب".

فكرت: لماذا أحبتك مارغريت دوراس وعاشت معك حتى لحظاتها الأخيرة؟ ظللتَ قربها، تساعدها على الرحيل بهدوء، وظلت تحبك.

* * *

تك، تك، تك، دار القفل في الباب ثلاث مرات. سكون، عتمة، وكما لو أن الأشباح التي تتحرك بحرية بدأت بالتلاشي بعد أن ضغطت الأم على زر الإنارة. انعكس ضوء أبيض على أثاث غرفة الصالون الفسيحة المفروشة بأثاث باهظ الثمن، بدت التماثيل المستقرة في الزوايا تنظر إليهم بوجوم ودهشة. التحف المعلقة على أرفف صغيرة، أو التي في المكتبة، علاها الصمت أيضاً، اللوحات الثلاثة التي تمثل البحر، الشيء الوحيد الذي استقبلهم بابتسامة مرحبة. أما رائحة البيت فكانت مزيجاً من رائحة الرطوبة مع سائل التنظيف. كان هذا الجو متناقضاً تماماً مع المكان الذي أتوا منه. ثمة أصوات قذائف وصواريخ، ما زالت تطن في آذانهم جميعاً، ورائحة بارود عالقة في ثيابهم.

دخلت الأم أولاً، تبعها ابنها الأكبر وسام وفي يده حقيبة متوسطة الحجم، كانت قامته الطويلة والعريضة تحجب زينب وما تحمله من أغراض. أما سامر فقد بدا مترنحاً لأن كلتا يديه مثقلتان بحقيبتين ثقيلتين، وضعت الأم فيهما حاجيات الأسرة الضرورية.

حين دخلت الأم إلى الصالون ظهر في عينيها لمعان الرضا عن الذات، لأنها قامت منذ أيام بالإشراف على تنظيف الشقة، كما طلب منها أخوها، الذي كان على وشك القدوم مع عائلته لقضاء إجازة

الصيف.

سارعت الأم إلى فتح نوافذ الصالون، فدخل نور خفيف إلى المكان. تبددت معه الظلال سريعاً، وغمرت الأشياء يقظة ، وسط دعوة مفاجئة للتنبه.

بدأ كل منهم حملَ أغراضه والبحث عن مكان مناسب لها. الأم دخلت إلى غرفة النوم الرئيسية، تحمل حقيبة يدها الجلدية، وحقيبة أخرى وضعت فيها أغراضها الخاصة، لحقت بها زينب وفي كلتا يديها حمولة صغيرة لأشياء متفرقة تم جمعها عشوائياً.

دخل وسام إلى غرفة نوم صغيرة مجاورة للصالون، وضع حقيبته فيها، ثم خرج وهو ينظر إلى الجميع قائلاً: "هذه غرفتي"، كما لو أنه بهذه العبارة المباشرة يمنع أي أحد من الدخول إليها. جلس سامر في آخر جزء من الصالون الفسيح، وأمامه على الأرض حقيبة من القماش السميك وضع فيها بعض ملابسه، ذلك الجزء من الصالون يتم استخدامه كغرفة معيشة، ومن الممكن حجبه عبر سحب ستارة ذهبية موشاة بنقوش لامعة، تفصل المكان إلى قسمين.

في البداية، لم يجرؤ أحد من أفراد الأسرة على الاقتراب من الغرفة المغلقة، التي أطلقت عليها عائلة خالها اسم "غرفة القتيلة". كان جميع أفراد العائلة يحكون عن حوادث غريبة تقع لكل من يحاول الحياة في تلك الغرفة. حدث هذا منذ بداية سكن خالها في الشقة قبل عشرين عاماً، حين اشتراها في منطقة "الصنايع" بسعر أقل من سعرها، وقيل حينها إن

تلك الشقة توجد فيها غرفة قُتلت فيها فتاة شابة في العشرين من عمرها، لذا كان كل من ينام في الغرفة يسمع تمتمات وبكاء يمنعه من الرقاد.

حين تجرأت زينب على الاقتراب وفتح باب الغرفة المغلقة، لاحظت طبقةً من الغبار تعلو الأثاث، فاستنتجت أن أمها تجنبت الدخول أيضاً إلى تلك الغرفة عندما قامت بتنظيف الشقة.

يبدو بيت خالها الآن، بغرفته المهجورة، والمُغبرة، مكاناً بعيداً عن الحرب، عن أصوات القذائف، وخطر الموت رعباً. لكن علاقة زينب مع هذا المكان تبدو ملتبسة، لأنها تحس بغربة تامة عنه. رغم حبها لصاحب البيت، إلا أنها لم يسبق أن تحركت فيه بحرية، كانت تحس كلما أتت لزيارة خالها أنها مقيدة بوجود زوجته وبناته، لأنها لم ترتبط معهن سوى بعلاقة إلزامية بحكم القرابة.

لذا لم يُفرح زينب هذا الانتقال، على الرغم من وجود ماء، وكهرباء، وهاتف، وتلفزيون يتابعون عبره الأخبار. عند مغادرتها البيت مع عائلتها، لم تأخذ معها سوى بعض ملابسها، وجهاز الكمبيوتر، وروايات مارغريت دوراس، وكتاب يان أندريا عنها.

وضعت زينب الكمبيوتر على طاولة صغيرة في الجزء الأمامي من الصالون، قرب النافذة المطلة على "حديقة الصنايع". نظرت الأم باستخفاف إلى أغراض ابنتها، وإلى انشغالها في تثبيت الكمبيوتر في مكان مناسب، ولم تعرف زينب هذه المرة إن كانت تلك النظرة بسبب الليلة الطويلة التي أمضوها تحت أصوات الصواريخ، أم إنها النظرة المستخفة

شبه الدائمة نحوها.

الأم تكاد تفقد عقلها بسبب الحرب، وتفكر في الرحيل إلى الجبل حيث كانت أختها تمضي أيام الصيف. لكنها لم تجد دعوة صريحة من الأخت، واعتزازها بنفسها لا يسمح لها أن تفرض حضورها هي وأولادها بحجة الحرب المباغتة.

رغبة الأم في البحث عن مكان أكثر أماناً من شقة أخيها، يُشعر زينب بالخزي، يَظهر هذا على ملامح وجهها كلما تحدثت الأم عن ضرورة مغادرة بيروت نحو البقاع، أو الجبل. مما يدفعها لوصف حال أمها بأنها "فقدت عقلها". تحس زينب بالغليان أكثر وهي تنظر من النافذة إلى جموع النازحين الذين ينصبون خيامهم في حديقة "الصنايع"، كيف يتعايشون مع الحرب، ومع نقص الماء والطعام، السجائر وحليب الأطفال. ينامون في الخيام، وعلى الأرض، أطفالهم يستحمون في العراء، أما النساء والرجال فيلجأون إلى تدابير مختلفة، كأن يقوموا بالاغتسال في طرف الخيمة مداراة لأجسادهم العارية.

تتلفت الأم في أرجاء المترل، تتحسر بنقمة على الحياة المرفهة التي ضاعت منها، لأن زواجها نقلها –من وجهة نظرها– إلى مستوى اجتماعي أقل، وجعلها تظل طوال عمرها من سكان "بير العبد" في "الضاحية الجنوبية"، بدلاً من أن تسكن في قلب بيروت، حيث تربَّتْ وكبرت. التواجد مع الأم بالنسبة لزينب لساعات طويلة، ولأيام متواصلة، أمر مزعج جداً، خصوصاً أنها ستضطر للمبيت معها في غرفة مشتركة، حتى اللحظة التي تتجرأ فيها على تنظيف الحجرة المغلقة،

والمبيت فيها. تسبب لها أمها إحساساً بالتوتر، تحديداً حين تضطر زينب لتبديل ثيابها في وجودها وهذا ما تتجنبه دوماً، فالأم لا تفوت فرصة لانتقاد جسد ابنتها الرفيع من دون تناسق، والشعر الذي يغطي ساقيها وأعلى فخذيها، وفي بعض الأحيان لا تتأخر في تذكيرها أنها لم ترث جمالها الأرستقراطي، وأن بشرتها سمراء، وفيها بثور لأنها أخذت ملامح عائلة أبيها.

كلما نظرت زينب إلى أمها أحست باستفزاز. كان شعر الأم بنياً فاتحاً مصبوغاً بإتقان، شفتاها مطليتان غالباً بلون خمري غامق، عيناها يتطابق لونهما مع لون شعرها، أنفها رفيع وصغير يبدو كما لو أنه يحتقر العالم، بالإضافة إلى أنها تصر على ارتداء ثياب أنيقة داخل المنزل حتى في أيام الحرب، هناك أيضاً تبرمها الدائم، نظرتها الساخرة، تحسرها على ترملها المبكر، وعلى عمرها الذي ضاع هباء في تربية أولادها.

تتحول الأم إلى كائن ضعيف ومستسلم أمام ابنها الأكبر وسام. يأتي ليطلب منها المال، تمنحه إياه وهي تشعر بالسعادة لأنها تحس بحاجته المستمرة إليها، تتظاهر بالاعتراض في بداية الأمر، لكنها تقوم بالتصرف نفسه في كل مرة: الاعتراض ثم المنح. وهو سيظل محتاجاً لها ما دامت تملك مالاً، وسيمنحها بعض الاهتمام والعطف لقاء ما يأخذه. يأتي وسام ليأخذ المال كي يختفي لأيام عدة، ثم يعود للإقامة في البيت وهكذا. أما الآن في أيام الحرب، فهو مضطر للاستقرار مع العائلة، يتنقل بين الصالون وغرفة النوم، مبدياً انزعاجه من هذا الحصار، ثم يعود إلى غرفته التي استقل بها، ومنع سامر من المبيت معه، لأنه يجب أن يحظى بغرفة مستقلة،

بما أنه الأخ الأكبر. غرفة مستقلة، ليخفي علب البيرة وزجاجات الويسكي عن عيون الآخرين.

لكن أكثر ما هو مزعج بالنسبة لزينب أن تمسك علبة الثقاب، فتجد أنها تحتوي على سيجارة مسحوقة وعود ثقاب تم استخدامه من قبل، أو حين تأخذ أمها آخر سيجارة من علبة سجائرها، وتتجاهل تماماً حاجتها للسجائر. تعرف الأم أن زينب لن تقدر على مواجهتها بهذا أبداً. كانت الأم تدخن في الليل سراً، وتضع السيجارة ورمادها وعود الثقاب في علبة الكبريت الفارغة، لكنها تنسى أن تلقي بها بعيداً، أو تتكاسل وتؤجل الأمر حتى الصباح، لا تشعل سيجارتها أمام أولادها، لأنها تريد أن تبدو أماً مثالية دوماً، في بيتها كانت تدخن في غرفتها الخاصة، لذا لا يمكن ملاحظة هذه التفاصيل الصغيرة. وبما أن علبة الثقاب الفارغة موجودة في الغرفة المشتركة، فليس هناك مجال للشك في أحد آخر.

* * *

يان..

الوقت الآن ليل، لكنه تشابه مُضْنٍ يرهقني، يدفعني للكتابة لك، أبحث عنها، وعنك.

أنت تعرف ما لا أعرفه، لكنك لا تعرف شيئاً عني. سأثق بك كي تضع حداً للتشابه الذي يرهقني، للتشابه الذي ربما يكون وهماً، أو هروباً من الحقيقة. لكن هل هناك ما يُسمى حقيقة؟

الأسئلة كثيرة ومتلاحقة في ذهني، عن الكتابة، عن عزلتنا الشديدة،

والموغلة، عزلتنا داخل عقولنا، داخل كوكب خاص بنا، لا يمكن لأحد اختراقه، كما لا يمكننا التحرر منه. أفكر لماذا أكتب إليك، ما جدوى ما أفعله؟

أحيانًا أحس، كما لو أني أنزف في داخلي، أنزف نزفًا شديداً غير مرئي، وأن ثمة دماء تسيل، وتتركني ضعيفة جدا لأنها تأخذ جزءاً من عافيتي. هل تفهمني؟! كما لو أن مجهولاً يمسك بجسد ما، ويدفعه إلى صخرة قاسية حتى ينخدش وينجرح ويسيل دمه، هذا النزف، أراه، لكن لا يمكنني فعل شيء معه. هل الإنسان هش إلى هذه الدرجة؟ لماذا لست قوية مثلها، مثل أمي؟ هل أمي قوية حقًا، ثم ما مقياس القوة، وما مقياس الضعف؟

هؤلاء الذين يتظاهرون بالقوة، هم من الهشاشة بحيث يعتقدون أن اصطناع القوة يحميهم تماماً، لكن قوتهم الوهمية تبعدهم إلى وقت محدد، حتى يقعون في لحظة مستسلمين للقدر الذي يحكم الجميع.

لعل الفرق بيني وبينهم أني أعترف بهشاشتي، وأتقبلها، أتقبلها كما نتقبل طفلاً معاقاً نحبه، لأن الحب فقط ما يمنحه الحماية. وحده الحب يساعدنا على مقاومة العزلة الكونية المفروضة علينا. ربما يكون كل ما يدور حولنا، من فن ورسم وكتابة ورقص وغناء وجنس، أشياء لا يريد منها الإنسان إلا كسر عزلته. ورغم ذلك يظل –بكل تفاهة– معزولاً وأخرق، لأنه غير مدرك أن حيز تلاقيه مع الآخر لا يشغل إلا جزءاً ضئيلاً جداً من زمن حياته. حتى الذين يحبون، أو يقومون بعلاقات جنسية عابرة، يقومون بها كسراً لطوق عزلتهم، ثم في ما بعد يعودون للعزلة

نفسها للانسلاخ عن الآخر والعودة إلى دوائرهم الخاصة.

أتفهمني يان؟ أتدري لِمَ أكتب إليك؟ ربما لأني أظن أنك عرفت العزلة التي أحكي عنها، عزلة الزمن، والوقت القليل، والحب، الحب بكل أشكاله وتقاطعاته.

ثمة تقاطعات كثيرة في الحب، أليس كذلك؟

هل آلمتك مارغريت يوماً؟

هل كنت تحبها حتى إنك لم تفكر بالألم، بماذا كنت مأخوذاً فلمْ تدرك الوجع إلا في وقت متأخر، بعد أن غابت عن عالمك؟

أنت لا تملك الإجابات عن كل هذه الأسئلة، أعرف، لكني أستمر في الكتابة إليك. في الوقت الذي لم يعد يتذكرك أحد فيه، أفتش بين أوراقك، أعبث بذاكرتك، وأسألك عنها، مضى على رحيلها أعوام كثيرة. كان العالم يتسع أكثر وأنت تحكي عن شغفك بها، تلك العجوز الساحرة بأي إكسير تمكنتْ من أسر قلبك حتى الآن.

سأستمر في الكتابة، لك، عنك، عن مارغريت، وعني، لأصل إلى يقيني الخاص الذي يمنحني الخلاص.

* * *

في البيت، داخل غرفتها في الطابق العلوي، تكون مارغريت وحدها. في البيت فقط تكون وحدها وتحس بالضياع المخيف الذي تكتب عنه، في الحديقة هناك كائنات تشاطرها الوحدة؛ عصافير، حشرات، قطط، فأر صغير يعبر سريعاً في لحظة خاطفة. لكن هنا في

هذه الحجرة ـ التي تحتوي على طاولة وسرير وخزانة خشبية مطلية بلون أزرق فاتح ـ حين تكون ستارة نافذتها منفرجة قليلاً ليبرز منها شق من الضوء، خيط طولي رفيع لا يكفي ليهدد الوحدة والعتمة، تدرك أنها مكثت هنا عشر سنوات، تؤلف رواياتها، وتصوغ حكايات جارحة عن ألم عتيق، كان من المفترض أن يُنسى منذ زمن طويل.

البارحة تشاجرت معه، صدّت الباب في وجهه، طلبت منه الرحيل، ظل هو جالساً عند حافة البوابة ينتظر عبور نوبة اغترابها ووحدتها. كانت ثملة وهي تطلب منه الذهاب بعيداً، وكانت تفكر بما يريده منها هذا الشاب. قلب باريس كرنفال من المسرات، يتركه هذا الأحمق ليطرق باب امرأة عجوز، هي نفسها تظن أن كونها كاتبة لا يعطي مبرراً لهذا الشاب كي يكسر عزلتها ويبقى إلى جوارها.

نظرت من شق النافذة نحو الحديقة، العصفور يقف على غصن الشجرة الصغيرة، سيطير سريعاً لو أحس بحركتها عبر مسافة بعيدة، تكره أن تكون سبب فرار العصفور، إذ رغم طول زمن بقائها في هذا البيت، وفي تلك الحديقة، ما يزال العصفور الصغير يسارع بالطيران حين يحس باقترابها. مررت يديها على شعرها وهي تفكر بالنزول إلى الطابق السفلي لإعداد قهوتها. في هذا الركن الصغير كتبت "انخطاف لول ف. شتاين". هنا حدث انخطاف لول إلى مكان مجهول، هنا اكتشفت تلك الحكاية الغامضة. منذ "انخطاف لول ف. شتاين" أدركت أنها وحيدة تماماً مع كتابتها، مع صور أبطالها الهاربين والضائعين. كانت وحيدة دوماً، لكن وحدتها مع كتبها الأولى تختلف عنها الآن، إنها الوحدة نفسها في الأماكن كلها. هنا ظهرت لها "لول فاليري"*، وفي هذا الوقت

---

* رواية لمارغريت دوراس بعنوان "انخطاف لول. ف. شتاين".

أيضاً لمع اسم يان أندريا في حياتها. لماذا رحلت "لول" وبقي "يان" هنا؟

والآن، لماذا يأتي يان أندريا ليفرض حضوره على هذه العزلة؟

اعتادت منذ وقت طويل ألاّ تحسب الزمن. تدرك مارغريت بعمق أن محنتها الكبرى هي مع الزمن السائر. لذا لم تعد تقربه، تجاهلته تماماً، وقررت الحياة من دون ساعات وأيام، رفضت هذا التقسيم الأبله للأيام والأعوام. وفي دورة هذا التجاهل ضاع من ذاكرتها اليوم الواقعي. كانت تقول: "لماذا لا يكون اليوم هو الثلاثاء بدلاً من السبت؟ لماذا لا يكون هذا العام هو العام السابق أو التالي؟ لماذا عليَّ الرضوخ لتقسيمات ابتدعها الآخرون وجعلوا منها قانوناً يسري على العالم كله؟". لن ترضخ لهذا القانون وستعيش زمنها الخاص.

في عزلتها تعرف الصمت، تقترب من السكون، ترى وجه الإله شفافاً مثل غلالة غيم، نقياً، وبريئاً، فرحاً كما يكون الفرح. لذا كانت تخشى الاقتراب أكثر، تشيح ببصرها بعيداً متواطئة مع صمتها الكثيف. تعرف أن هذه العزلة تمنحها غبطة قدوم أبطالها الهاربين، عليها أن تصمت طويلاً كي تتيح لهم مجالاً للوصول، للكلام، للبوح بحكاياهم، كي تكتب.

في تلك العزلة، ماذا كان عليها فعله سوى الكتابة؟ أن تقلب أقلام الحبر الكثيرة السوداء الموجودة على طاولتها وتختار أي قلم ستكتب به هذا اليوم. أوراق الكتابة بيضاء تماماً، خالية من السطور، هناك أقلام حمراء وخضراء، كي تضع خطوطاً بجانب الكلمات التي ينبغي عليها العودة إليها.

* * *

في المساء، بينما كانت زينب تكتب على الكمبيوتر، وتتابع مع أمها

مشاهد الحرب على التلفزيون، فاحت من غرفة وسام رائحة سيجارة حشيش. تُميز هذه الرائحة جيداً، والأم أيضاً، لأن وسام حين يضطر للإقامة في المترل لأيام لا يتورع عن إشعال سيجارة حشيش في غرفته. هو متأكد أن الأم لن تجرؤ على إغضابه، وستغض الطرف لأنه سيهددها بمغادرة البيت نهائياً.

وقفت الأم وهي ترتدي قميص نوم من الساتان الأزرق، ادعت أنها ذاهبة لتحضير العشاء كي تتخلص من الموقف. بعد قليل فاحت رائحة البيض المقلي بالزبدة، وكادت تطغى على رائحة الحشيش المتسربة من الغرفة المجاورة. نادت الأم على زينب وسامر لمشاركتها العشاء، ولم تجرؤ على الاقتراب من غرفة وسام، تجاهلته تماماً. جلس ثلاثتهم قرب صينية الطعام التي احتوت البيض والجبنة واللبنة والزيتون الأخضر. خلال العشاء كانت الأم تحكي عن الحرب، وتطرح أسئلة وتجيب عنها، حول الأماكن التي من المحتمل أن يكون ذهب إليها جيرانهم ومعارفهم، ثم تختتم كلامها قائلة: "يي بكرة شو رح نسمع عن ناس ماتوا وما حدا عرف فيهن". أما سامر فقد عَبَّرَ عن ندمه لأنه لم يُحضر معه آلاته الموسيقية، وكما لو أن الأم تنبهت حينها إلى احتمال أن يغامر ابنها بالذهاب إلى البيت لإحضار الآلات الموسيقية، تلفتت نحوه بحسم وهي تقول: "إوعى حدا من صحابك يلعب بعقلك وتفكر تروح عالبيت، وتعلق هونيك أو يصيرلك شي، إوعى تعملها الله يرضى عليك".

لم يرد سامر واستمر في الأكل بشهية. زينب ظلت صامتة تراقبهما من دون مشاركة في الكلام، ثم تحدثت لتؤيد وجهة نظر الأم في خطورة

الذهاب إلى "بير العبد" في أجواء القصف والدمار، قالت إنه ليس هناك شيء إلزامي يُحتم المغامرة. رد سامر متهكماً أن زينب مرتاحة الآن لعدم وجود الآلات لأنها تترعج من صوت موسيقى الروك.

لم تكمل الأم مشاركتهما الحوار، وقفت وأخذت من فوق التلفزيون ورقة مكتوب عليها لائحة بالأطعمة والخضار التي ينبغي على زينب إحضارها في اليوم التالي. لاحظت زينب أظافر يدي أمها التي بهت لون طلائها الوردي، كما لاحظت نقاط نمش قليلة على ظهر اليد تظهر مع التقدم في السن، أخذت منها الورقة وهي تسمع تنبيهاً ألا تتأخر صباحا في إحضار حاجيات المترل.

حملت زينب صينية الطعام إلى المطبخ وهي تفكر أن وقت الحرب مهم بالنسبة إليها، لأنه أبعدَ عن ذهنها التفكير بالانتحار. فالموت مجاني ومتوفر بكثرة، الموت لم يعد حدثاً، أي أنها لو ألقت بنفسها الآن من هذه النافذة، من هذه الشقة، ومن الطابق الثاني، في مبنى يطل على حديقة الصنايع، التي يسكنها النازحون، فلن يكون ذلك سوى خبر غريب، لكنه لن يكون حدثاً مهماً.

فكرت أن موتها سيكون مجانياً، لكن ليس هذا السبب فقط ما يبعد فكرة الانتحار عن ذهنها، بل الموت قبل الوصول إلى فكرة الخلاص الذي تبحث عنه.

موتها في وقت السلم، حين كانت حياتها تعج بالفراغ والوحدة قد يؤدي بها إلى الخلاص. أما الآن فإن الحرب تمنحها الإحساس أنها كائن

يستحق الحياة. الآن صارت تفهم إحساس المقاتل بأهمية دوره في زمن الحرب، ولماذا يحس بالهزيمة بعد انتهائها، حتى وإن كان منتصراً. لقد انتهى دوره، ويصير عليه العودة للحياة كأي رجل عادي، حينها تبدأ معاناته. ولو حدث وقام نزاع مفاجئ بين طرفين، سيبتهج لأنه قادر على تحويله إلى حرب كبيرة، لأن الحرب تعيده إلى دائرة الحياة، التي همشته في زمن السلم.

* * *

يان

عند الصباح الباكر.

أحب المرور ببطء أمام عربة بائع الخضار، أحب رؤية وجهه المتفائل رغماً عن جو الحرب، يرش رذاذ الماء البارد على النعناع والبقدونس والزعتر البري. ينادي على بضاعته بلهجته التي تكشف عن مكان قدومه، هكذا يعلن أن كائنات العربة ستفترق عن بعضها بعضاً بعد قليل وتتوزع في بيوت كثيرة، وتصير يقظتها الصباحية في الشارع مجرد ذكرى تنتشر في كل بيت.

رغم قيامي بالأعمال المترلية منذ أعوام، إلا أنني غالباً ما أنسى حبات الطماطم في درج الثلاجة حتى تذبل، وحتى أعرف وخز الضمير لأني كنت مشغولة في حل نزاعات أبدية تبدأ داخلي مع كل صباح.

"لماذا لم يطرقوا جدار الخزان"؟.

هذه العبارة لم تسمع بها أنت، ولم تقرأها.. أليس كذلك؟ لقد

أخذتها من رواية لغسان كنفاني● أعطاني إياها مازن، سأحكي لك في يوم ما عن مازن، وعن حكايتي معه.

وأنا.. متى سأطرق جدار الخزان؟

ماذا كنتَ تفعل حين كانت مارغريت تسقي ورود حديقتها، ولماذا كنت ساهماً في كآبتك إلى هذا الحد؟

حين يكون زمني مائلاً للغيم، سأمر بيدي اليسرى بين خصلات شعرك الشتائية، وأترك أصابعي ترسم بكريما الفانيليا تجاعيد جبهتك.

العابرون في الشارع عند المساء يكونون مثقلين بكل حكايا يومهم، لذا لن يصدّقوا أن الفجر قد يحمل حباً جديداً، صافياً كماء النبع. ثمة روح قُبلة مُعذبة ظلت معلّقة في الفضاء، فلا هي ظلت في سمائها العليا، ولا نزلت إلى جسم لطيف. سأتجاهل هذه الحقيقة. لا يمكنني تصديق أنك تمت عني، وأحببتَ الطمأنينة أكثر مما أحببتني. لكن هذا ما حدث.

* * *

كانت طاولة مارغريت وهي تجلس في المقهى، تواجه الباب المطل على شارع السان ميشيل. تتأمل مارغريت الفتاة التي تسير في الشارع ،تتشبث بمعطفها وتتكلم بانفعال مع الرجل الذي يسير برفقتها، تعاتبه، تتشاجر معه. كان يان منهمكاً في الحديث عن نص مسرحيته الجديدة، بدت ملامحه تفيض بالحيوية وبالرغبة في الحديث

كاتب فلسطيني، ولد في عكا عام 1936،وتم اغتياله في بيروت على يد الموساد في 8 يوليو 1972،وكان عمره 36 عاماً. من أبرز رواياته عائد إلى حيفا"، و " أرض البرتقال الحزين" و " العروس" و " الرجال والبنادق". ●

مع مارغريت عن أحداث المسرحية وأبطالها، لكنها قالت له فجأة:

ـ كل هذا سيصبح ذكريات في وقت ما، مجرد ذكريات منسية....

بدا يان متفاجئاً من كلماتها، سألها بخيبة:

ـ ما الذي سيصبح ذكريات؟

مررت كلتا يديها على خصلات شعرها القصير الذي طغى عليه اللون الرمادي، ثم قالت:

ـ كل شيء، كل شيء سيصبح ذكريات، جلستنا هذه، أنا، أنت، اليوم، هذه اللحظة، مسرحيتك التي تحكي لي عنها، تلك الفتاة التي تتشاجر مع الرجل الذي تحبه، كل هذا سيصير مجرد ذكريات قد لا يعرف بها أحد.

خفضت مارغريت رأسها، ونظرت إلى الطاولة لثوانٍ، قبل أن تقول وهي تضرب بيدها بخفة على يد يان الممدودة على الطاولة:

ـ أكمل ما كنت تحكيه عن مسرحيتك، أسمعك.

نظر إليها يان، حدق في وجهها، في التجاعيد الرقيقة حول عينيها، في خطّي العمر حول وجنتيها الشاحبتين، أحس كم هي هشة، وكم يحبها. هذه المرأة التي يراها الآن لا تختلف كثيراً عن البنت الخائفة في روايتها "العشيق". *.. السنون التي باعدت بين زمن الكتابة والآن، لم تأخذ معها سوى خصوبة الجسد وحيويته، أما لمعان العينين، اضطراب الروح، وارتعاش القلب أمام لمعة شهاب عابر، فما زال كما هو، في النواة الأعمق من ذاتها.

* "العشيق": من بين الروايات الأكثر شهرة لمارغريت دوراس.

* * *

في صباحها الباكر هذا، تنظر زينب إلى سقف الغرفة التي تنام فيها. تتمدد في زاويته رقعةٌ مجعدة، تتساقط ذرات من الدهان الأبيض على سريرها. تسمع صوت أمها، وهي تثرثر عبر التلفون –عن الحرب– مع أخيها الذي يقيمون في بيته الآن.

تذكرت أنها خلال الليل، وهي نائمة، قبل أن تغفو تماماً، سمعت صوت عزف بيانو، أحست أن الموسيقى تأتي من مكان مجاور، لكن العزف كان ينساب، ويتوقف، حتى خُيل إليها أنه غير موجود. لكن تلك الموسيقى ظلت تتسلل إلى سمعها طوال الليل، بخفوت، ثم بصخب.

لكنها الآن تسمع أصوات الأطفال النازحين في حديقة "الصنايع" ،ترتفع وهم يصدحون بأغنية للمقاومة، ويرسمون على الحيطان بنادق وإشارات النصر. ومن النافذة تشاهد مذيعة من إحدى الفضائيات أتت لتسأل الأطفال وأهاليهم عن الحرب. "التهجير صار مادة إعلامية ينبغي أن يعرفها العالم عن كثب ليساعد في إنهائها". هذا ما قالته زينب لصديقتها ساندرا حين كانتا في الحديقة تسألان الأمهات عما يمكن فعله لمساعدتهن. إحداهن طلبت وهي خجلى حبوب منع الحمل، فيما توسلت أخرى إليهما لتُحضرا سجائر لزوجها، امرأة ثالثة طلبت أوعية لطهي الطعام، وإبريقاً لتسخين الماء وغلي الحليب.

تلك تفاصيل صغيرة لم تكن لتنتبه إليها لولا الحرب.

نظرت زينب إلى المنضدة الصغيرة قرب السرير، كان هناك دفتر

متوسط الحجم، لون غلافه الخارجي أزرق، ومن الداخل خالٍ من السطور، صفحاته بيضاء تماماً، في ما عدا الصفحات التي كتبت زينب عليها بالقلم الرصاص، كلمات متداخلة تشبه الطلاسم التي يكتبها السحرة، لن يستطيع أحد غيرها حل شيفرتها، أحياناً تكتب في العتمة، وهي نائمة، ترسم الإشارات التي شاهدتها في الحلم كي لا تنساها حين ترجع إلى عالم اليقظة.

حين تكتب تكتشف مدى عزلتها داخل حلقة واحدة لن يوجد فيها سواها، تكتشف هذه العزلة في تشبثها باستمرار الكتابة. الكتابة لا تُدخِلها إلى أي مكان آخر، لكنها تجعلها على تماسّ مع حلقة مجهولة. في هذا الشغف للتماسّ بين حلقتين، بين عزلتين، تحدث الكتابة، عندما تقترب وتحس أن حلقة حديدها البارد تلامس حلقة أخرى، تمنحها شيئاً من الدفء.

ربما يكون البشر معزولين في حلقات تتفاوت أحجامها، لذا يبحثون عن الحب، وربما هم يعيشون من دون اكتشاف عزلتهم الحقيقية، ويظنون أن كل ما يقومون به من نشاط يومي مكثف، جدار ضد العزلة.

اكتشفت كل هذا في وقت مبكر، منذ حكايتها الأولى مع حامد. عرفت أن الأحاسيس الإنسانية تكون حقيقية في وقت ما، وفي ما بعد، بنسبة من النسب، بشكل أو بآخر، تتبدل. لا بد أن يحدث ما يوقف ديمومة أي استمرار، فقط كي تستمر الحركة الدائرية الأبدية للحلقة الأكبر. فالموت، والميلاد، والحروب، وكل هذا الرعب، والألم، والمسرات الصغيرة، بل ونقاط التلاقي، كلها تمنح الحلقة الكبرى ديمومة استمرارها

التي تُنهي في دورانها كل الحلقات الأصغر.

لقد غيرتها هذه الحرب. كما غيرتها ليلة عيد الفصح الوحيدة التي حضرتها، ليلة العيد أدركتْ عزلتها. وفي الحرب عرفت أنها أكثر حرية وقوة.. الحرب اختبرت قدرتها على الفقد، هذا ما ستدركه في ما بعد. في البداية خاضت اختبار الأشياء، ثم البشر، لكنها في الحرب أيضاً تعلمت التمسك بالناس والأحلام، ثم تعلمت ممارسة لعبة الاستغناء، التخلي عن كل ما صرفت ببذخ لجمعه، بروفة للرحيل، بروفة للفقد، ثم بروفة للموت أيضاً.

* * *

يان..

في ليلة عيد الفصح، ساندرا وفادي، كارمن ورجا، كانوا يكسرون قشرة البيضة الملونة عبر ضربها ببيضة أخرى. وحدي كنت أجهل طقوس الاحتفال بالعيد. وحدي، ولم أكن أعرف أني سأظل وحدي.

مدام تريز والدة ساندرا مشغولة بتجهيز الطاولة لتضع ديك الحبش. حين لَحتْ البيضةَ السليمة في يدي دعتني لأتبادل معها كسر البيض. كانت تنطوي على أمومة تفوق قدرتي على الاحتمال، تدفعني لأمرين: البكاء والاعتراف.

في تلك الليلة تذكرت أبي، أحسست بنشيج حاد في داخلي.

بعد غيابه الطويل، كنت أحس أحياناً أنه يراقبني، من خلف زجاج الأماكن المغلقة، من داخل مصباح النور، ألمحه وأنا أجلس في المقعد

الخلفي في السيارة، يعبر سريعاً، مبتسماً في وجهي، أراه أكثر وسامة وشباباً مما أذكره. أفتقده كثيراً، وأدرك أن عالمي شديد البرودة، وأن حاجتي للحنان المطلق هي التي دفعتني في طرق شتى. طرق مجهولة وعرة.

لكن الآن يان، في وقت الحرب، ربما لا يجدر بي التفكير في هذا الاتجاه، لكن الكلمات تعبث بذاكرتي كما لو أنها نتف من قطن كثير، منثور في كل الاتجاهات، في يوم عاصف جداً.

يان...

البرد هو مأساتي، البرد لا شيء سواه.

لا، لا، هناك أمر آخر يعذبني جداً –لكنه معطوف على البرد. تَخيُلي أنني فتاة أعواد الثقاب. "بائعة الكبريت" التي تشعل كل ما لديها من أعواد ثقاب صغيرة، ثم تموت متجمدة من البرد على الرصيف، قبل أن تجد حلاً لمأساة البرد.

لكن الآن، هناك حر، هناك حرب أيضاً. الحرب أكثر شراسة في زمن البرد. ماذا لو استمرت الحرب حتى وقت البرد؟

يان..

هل تعرف كيف يكون طعم الموت، هل أخبرتك مارغريت عنه؟

مارغريت عرفت الحرب، عرفت الموت والدمار بعمق، قبل أن تنأى بنفسها بعيداً عن الواقع. هل حدثتك مارغريت عن الماضي، أم إنك لم

تعرف شيئاً أكثر مما يعرفه الآخرون. لكن هذا مستحيل، فقد أمضيت برفقتها خمسة عشر عاماً، تكفي أن تكسر كل حواجز الصمت.

جاءت الحرب عندما كنت أحضر لك هدية، دي. في. دي لفيلم (End of the affair). الفيلم الذي حكيت لك قصته ثلاث مرات. لكنك كنت مأخوذاً بصوت "أديث بياف" وهي تغني عن باريس، حنينك الأول.

ليس وزني الخفيف هو الذي يشعرني أنني كائن غير ثابت على الأرض، بل إحساسي المستمر أني كائن غير مرئي.. أحياناً كان من الممكن أن يصطدم بي أحد العابرين في شارع أيامي، ثم يتركني ويعبر من دون كلمة "اعتذار" أو "أسف". هذا ما حدث أكثر من مرة، الذنب ليس ذنب الآخرين، تزداد قناعتي أني كائن غير مرئي. لكن الآن من الممكن أن أموت، أن يتناثر دمي على الأرض، أن أكون رقماً في سلسلة الضحايا. هل سأتأكد حينها أني كنت مرئية، كنت حية، وكان لي جسد لم أعرف كيف أحبه؟

الظلال تمنحني قدرة أعمق على الإبصار، لذا أدرك أنك تعرف بقلبك ما أعنيه، كما كانت مارغريت تعرف بقلبها سبب إصرارك على البقاء معها.

الآن، في هذا الوقت المهددة أنا فيه بالغياب، تمنحني كتابتي لك يقيناً للبقاء. أقلب روايات محبوبتك وأبحث عن ظلك النحيل بين السطور، ثم

أقرأ كتابك عنها، وأفكر هل حقاً "هذا هو الحب؟" *.

* * *

تمنت مارغريت لو كانت متسولة غير مشغولة سوى بالبحث عن معيش يومها، أو غجرية غير مطلوب منها تذكر الأمكنة والوجوه والأسماء. أكثر ما يعذبها هو ذاكرتها الهرمة المثقلة بتفاصيل لا يمكن التخلص منها. منذ سنوات حين تدعو أصدقاءها من باريس إلى أمسية عشاء في منزلها، تظن أنها ستهرب من ثقل العزلة الكثيفة، لكن حين يحضرون، بعد أن يبدأ الصخب يطفو في المكان، وينتشر الأصدقاء في المطبخ والصالون، متنقلين بين البيت والحديقة، تجد نفسها أكثر عزلة، تجلس في مقعدها ذي الغطاء البيج المشجر بألوان من البني والكريم، تتكئ على هذا المقعد وفي يدها كأس من الويسكي المثلج، هي وكأسها، منذ سنوات معاً.

يان.... يان أندريا، "يا له من شاب ذي عينين مشعتين ووجه فيه براءة شاحبة". تردد هذه العبارة في داخلها وهي تلمحه يتحرك بين الضيوف، ويبتسم لها من بعد وهو يدير جهاز التسجيل على موسيقى تحبها، ثم يتجه نحوها ليمسكها من يدها ليرقصا معاً. كان ثلاثة من الأصدقاء يناقشون سياسة ميتران، بينما صديقتها، إيرما الصحافية التي بلغت الخمسين قبل شهر، تشاركهم الحديث بحماسة شديدة عن السياسة الجديدة لحزب العمال. تطوف نظرات مارغريت بينهم فيما يد يان تحيط بخصرها، تحس كم هي بعيدة عنهم، ليس هناك ما يدفع الحماس بداخلها لأي مشاركة في الكلام، تود الاستماع بصمت، تود

---

* "هذا هو الحب" كتاب يان أندريا عن علاقته مع مارغريت دوراس، وقد كتبه بعد رحيلها.

الرقص أيضاً بين ذراعي يان.

هي وهو يشكلان لوحة غريبة، لوحة عبثية مجنونة، تكسر كل الأفكار الثابتة عن خطوات الحب، والسن، والزمن. في العلاقة مع يان، كما في العلاقة مع جسدها، لا تنتظر سوى عطاء آنياً، آنياً فقط. بينها وبين يان لا يوجد سوى "الآن" بل "الآن فقط". ماذا تريد أكثر من ذلك؟ لو حدثت معجزة استمرار "الآن"، سيحصل الكثير من الفرح، لكن هذا لن يحدث لأن الزمن يمضي، لأن الأصدقاء سيذهبون، وهي مع مرور كل يوم ستكبر يوماً. ويان أندريا أيضاً سيزداد توهجاً قبل أن يبدأ بالأفول، هو أيضاً سيكبر مثلها، هو أيضاً سيرتكب جسده نحوه خيانات مختلفة. إنها معادلة الزمن الأبدية؛ نتقدم كي نصل، نتوهج كي ننطفئ، نكبر كي نموت، نحن محاصرون بهذا الرعب رغماً عنا، ولا نملك أمامه أي سبيل للنجاة. لو منحها جسدها بعض الصمود، الوقوف عند حد معين من الخسارة، يمكنها أن تستمر أكثر، وأن تكتب أكثر. الكلمات لا يصيبها الهرم، لديها الكثير لتقوله، كتابتها ما تزال فتية وقادرة على الحياة بنشاط وسط هذا الركام. الكتابة هي الشيء الوحيد الذي ظل معها طوال الوقت... طوال الوقت، وفي كل أنواع الأحزان والمسرات.

تذكرت عبارة دانيال حين كان يقول لها: "إن ميزة الحياة في قدرتك على رؤيتها من أكثر من وجه، وإيجاد أسباب دائمة للفرح". كانت تقاطعه لتقول: "وأسباب للحزن أيضاً". يتمم عبارته المبتورة قائلاً: "فرح وجودك في الحياة، ثم فرح استمرارك بها كل يوم شيء عظيم".

* * *

حين فتحت زينب زجاج النافذة صباحاً، كانت تراقب استمرار الحياة عن كثب. أبصرت خيام النازحين، وقطعاً من ثيابهم معلقة على أغصان الشجر، امرأة تطبخ على بابور الكاز، وبنت صغيرة تبكي لأنها صارت ترى العالم بعين واحدة، ولا تقدر على لمسه لأن الحروق تملأ يديها.

هي أيضا تنتمي إليهم لأنها مهجرة، لكنها أكثر حظاً، هي تسكن في بيت وإن كان مستعاراً، بيت فيه جدران، وسقف، وباب مغلق. هكذا لا تكون مضطرة للبحث عن ماء للشرب، أو للمبيت في خيمة، والاستحمام سراً.

لما نزلت من البيت سارت من "الصنايع" نحو "شارع الحمرا". كانت تنظر إلى واجهات المحلات المغلقة، وتفتقد زحمة السير المألوفة. الشوارع شبه خالية، وهي ستذهب لرؤية ساندرا التي تسكن في أحد الشوارع الفرعية من شارع "الحمرا". شعرت بالحر وقطرات عرقها تتسرب من صدغيها لتبلل حجابها الأبيض. لم تكن تضع على وجهها أي نوع من مساحيق التجميل، حتى شفتيها كانتا جافتين من أثر الحرارة.

بدت لها الطرقات موحشة جداً، تعبق فيها رائحة البارود، الشمس ساطعة، لكن هناك غيم ثقيل أسود يسيطر في حضوره على فضاء بيروت. "شارع الحمرا" الرئيسي شبه فارغ، في ما عدا أشخاص مثلها، مدفوعين للمضي حتى في أيام الحرب، باحثين عن شيء ما. لكن هي عم تبحث؟ لماذا ترغب في السير طويلاً بلا هدف؟

صوت القذائف، غير البعيدة، يدوي بقوة، تاركاً اهتزازاً في الشارع، على الجدران، على الأرض، وفي الهواء الجامد. وجوه العابرين تنقبض، تسيل ألوانها لثوان عدة، كما لو أنها في لوحة رسام قرر فجأة تبديل السكون بالعاصفة.

في الشارع الفرعي عند مطعم "بربر" لم يكن هناك أحد أمام واجهة المحل الذي يكون مكتظاً عادة بالسيارات والمارة، الآن لا يوجد فيه سوى عدد قليل من العمال، يبدو أنهم متواجدون إما للضرورة، أو للفرار من حصار الحرب الممل. وحدها القطط تتحرك بحرية، وبلا خوف أمام القمامة الملقاة على الرصيف. وبينما هي تعبر الشارع سمعت صوتاً رجولياً تميزه جيداً ينادي باسمها، حين التفتت إلى الخلف رأت د. عبدالله يقف قرب الرصيف، ويستعد لعبور الشارع. اقترب وصافحها وهو يشد على يدها، ويلامس ذراعها بيده الأخرى، في حركة حاول أن يحملها كثيراً من المودة، أو ما يشبه الاعتذار. كانت تنظر إلى قامته الطويلة بشيء من الدهشة لرؤيته في مثل هذا اليوم، وفي هذا المكان، أحست في عينيه انكساراً لم تفهمه، لكن حين أخبرها أن البناية التي تقع فيها شقته قد سقطت بالكامل، لم تحس نحوه بأي تعاطف، غلب عليها إحساس مبهم لم تتمكن من تفسيره، ربما لأن تلك الشقة التي تعرفها جيداً قد زالت الآن عن سطح الأرض، ولم يعد لها وجود. ليس هناك باب شاهد على أنها كانت تجلس على عتبته، وهي تعرف أن صاحب الشقة في الداخل، لكنه يتركه موصداً في وجهها حتى يروق له أن يفتحه، وأحياناً لا يفعل لأن امرأة أخرى تكون برفقته. الآن لم يعد هناك جدران تشهد على

الاهانات التي تلقتها يوماً لسببٍ ما لا تجد له اسماً، كما لم يعد هناك سرير غريب يحتوى جسدها إلى جانبٍ جسد رجل كانت تحس أنها تتلاشى تماماً في وجوده. ما بقي الآن هو رجل مهزوم، يشكو لها وحدته، وتهدم شقته، ويقترح عليها رفقته من جديد.

كلام، كلام، تسمعه، وتفكر بكل ما تعنيه له تلك الشقة التي تشبه متحفاً للأصنام، للكتب، للّوحات، للتحف، لا للحياة. تذكرت كيف كان يمنعها من قراءة الكتب الموجودة في المكتبة، خشيةَ أن تغير ترتيب الكتب، وكيف اكتشفت أن كتبه عذراء تماماً، كتب وضعها في مكتبة كبيرة لأنها جزء من الشكل الاجتماعي الذي ينبغي أن يكون عليه. تذكرت اللوم والصراخ الذي انهال به عليها يوم سقطت من يدها تحفة تمثل امرأة إفريقية. كان التمثال الصغير لتلك المرأة أعز عليه منها هي بكل ما تحس به من وله أحمق نحوه.

وهي تنظر إلى عينيه الزرقاوتين، وشعره الرمادي، هالها كم تختلف المشاعر مع مرور الوقت، فكرت أنها في وقت ما كانت ترتجف من لمسة يديه، تتلقى خيانته وإهاناته من دون أي ردة فعل سوى الاستسلام، كانت تخاف أن يطردها من جنته لو اعترضت على تصرف يقوم به. لقد عاشت عامين مريضة بوهم الحب الكبير، وهم أستاذها الجامعي الذي تحلم به كل الطالبات، فيما هي الوحيدة التي حظيت بشرف زيارته، والمبيت في سريره. عامان من عمرها انقضيا وهي تنتظر اتصالاته المرهنة لرغباته فقط، قد تحصل كل يومين، أو كل أسبوعين، أو كل شهر، فيما هي تنتظر. كانت مريضة به إلى الحد الذي يمنعها من الاعتراض.

الهواء محمل بسخونة ثقيلة عالقة بين الأرض والفضاء المفتوح، اللون الأزرق البعيد للسماء بدا بريئاً جداً، ونقياً، لا علاقة له ببارود القذائف، ولا بحكايات الوله الحاد مثل سكين باردة، مرورها على الجلد لا بد أن يسبب جرحاً. عيناها السوداوتان مثل عيون السناجب، تختزلان التفاصيل الصغيرة، لكن زينب تمضي في سماع كلمات لا تمتّ للزمن الحاضر، كلمات تعود لوقت العاصفة الشديدة التي هبت عليها ذات وقت.

الحوار الذي تبادلاه، كان عن الحرب أيضاً، حكى لها أنه يسكن في شارع "الجامعة العربية"، في شقة استأجرها منذ يومين، دعاها لزيارته بحرارة وهو يصف لها العنوان، ثم راح يسألها عن أحوالها، وعن مكان إقامتها الحالي. ردت على أسئلته ببساطتها المعتادة في التعامل معه، وفي التعامل مع الحياة، من دون أن تتطرق لجزئية الزيارة الموعودة.

بعد أن عبرا الشارع معاً، سار كل منهما في شارع فرعي، كانت تبكي وهي تسير نحو بيت "ساندرا"، خيالات تلك العلاقة تعبر أمام ذاكرتها التي لم تشْفَ تماماً من ندوب تلك الجراحات. تذكرت مازن أيضاً، كيف ساعدها على الخروج من شقة الأصنام التي دخلت في متاهتها، وتذكرت كيف سببت له ألماً كبيراً في عدم اتخاذها موقفاً واضحاً نحوه. مسحت دموعها بطرف بلوزتها الطويلة، وهي تتخيل أنها ربما تكون تسببت لمازن بالألم نفسه الذي سببه لها د. عبدالله. لكن حكايتها مع مازن كانت مختلفة تماماً. لقد أحبها مازن بأسلوب مغاير. أحب روحها المضطربة، واحتواها بكل ما فيها من جراح وحروق.

تلمع أمام عينيها الطريق الرئيسية المرصوفة بحجارة مربعة. في عينيها دموع متجمدة، وفي صدرها شهقة كبيرة مكبوتة. تتابع سيرها بخطوات سريعة، لم تلتقِ سوى رجلٍ عجوز يأكل منقوشة في الشارع، وشبّان بدا أنهم من سكان المنطقة، أو أنهم وافدون مثلها. أصوات القذائف التي تسقط على الضاحية الجنوبية تهز سكون الشارع المقفر تقريباً، فيما عدا مقهى إنترنت عند زاوية شارع "جاندارك" مزدحم بشبان وفتيات يضعون السماعات حول آذانهم، ويُجْرون محادثات عن الحرب والحب، عن المدينة التي اشتعلت بين ليلة وضحاها. كانت محلات الورد مغلقة في شارع "جاندارك". سكون ضبابي يغلف المكان بطبقة غير مرئية، في الحروب لا يفكر الناس بالورود. صعدت زينب ثلاثة طوابق نحو بيت ساندرا، كانت الكهرباء مقطوعة. استقبلتها مدام تريز بابتسامتها المعتادة التي تشبه نقشاً على قلادة. كانت زينب تتعجب من قدرتها على الابتسام في أسوأ الظروف. ربما هذا ما يعنيه الإيمان الحقيقي، أن تقْدر على منح الحب بالمطلق، من دون تأثر بالأحوال الخارجية للعالم. عندما جلست زينب على الكنبة وسألت عن ساندرا، عرفت أنها غير موجودة، وأنها ذهبت مع مجموعة من الصحفيين إلى "الضاحية الجنوبية"، كي تلتقط صوراً لما فعلته الحرب بالمكان. أحست بقشعريرة باردة، واجتاحتها رغبة بالبكاء لم تقاومها، لكنها قاومت رغبتها بالتدخين. كانت تتكلم مع مدام تريز عن الصور المتلاحقة في ذهنها، عن البيت الذي تركوه، عن أبيها الذي يلوح لها مبتسماً من مكان بعيد، عن د. عبدالله الذي التقت به في الشارع منذ قليل، وعن أمها التي تنتظر عودتها كي تحضر معها أغراض

البيت. حكت أشياء كثيرة، ثم استمعت لمدام تريز تحكي لها بهدوء حكاية الراهب البوذي الذي كان معتقلاً عند الصينين، ثم بعد خروجه من السجن سأله راهب آخر: "ما أسوأ ما تعرضت له في سجنك؟"، فأجاب: "أن أفقد تعاطفي مع جلادي".

وهي تسير عائدة إلى البيت كانت تفكر بعبارة الراهب وبالقدرة على التسامح، فكرت في أنها ما تزال عاجزة عن نسيان الندوب المؤلمة. لو كانت قادرة على هذا، ربما ستتعامل مع أمها بطريقة أفضل، ستنسى التفاصيل الماضية التي تقوم بينهما مثل جدار عازل.

* * *

يان..

قطعوا أغصان شجرة التوت. انزعج منها الجيران في المبنى المجاور لبيتنا. أوراق "التوتة" العريضة ترتفع لتطال شرفتهم، قطعوها ولم يتركوا منها إلا جذعها الذي يصل طوله إلى متر ونصف المتر تقريباً. لم أعرف كيف بإمكانهم ألاّ يروا القفر الذي يسببه غيابها عن الشارع. ظل انزعاجي مكتوماً وتتالت الصباحات على شرفتي مع غياب "التوتة". لم أخمن أن هذا الغياب كان يخفي وراءه بتراً آخر، ويقف على تخوم الاقتلاع من الجذور.

لم يكن هناك ما ينبئ أننا بعد أيام سنُصبح مثل شجرة التوت المقطوعة الأوصال، أوراقنا مقصوصة وملقى بنا إلى الخارج.

وكما لو أن وحشاً عملاقاً، يضع يده الضخمة عند كاحلي، يهزني من تربتي، يقتلع جذوري، ثم يلقي بي الى الأرض، ويقهقه ساخراً حتى تهتز الجبال.

كيف لم أعرف أن الصباح لن يأتي بعد أن قطعوا "التوتة"، وأن لا نور حقيقي في السماء. السماء التي بدت سوداء ومؤلمة، ثقيلة، تجثم على الصدر.

كيف لم أعرف أن الصباحات على شرفتنا كانت حلوة، وكيف لم أصدّق ابنة جيراننا "ريم" حين قالت لي إنها تحب بيتنا صباحاً! كنت أجيبها بلامبالاة: "ليه... بيتنا عادي جداً.. يشبه كل البيوت". لِمَ كنت أستمع لأمي بكسل وهي تحكي لي عن أشهر الصيف التي ستمضيها في زحلة.

لماذا كنت ملولة إلى ذاك الحد من بنات الجيران حين يجتمعن حول "أم حسن" لتقرأ لهن الطالع، وتفسر مدلول الإشارات ورسوم بقايا القهوة. "أم حسن" التي تستمد وجودها بينهن من مدى قدرتها على التنبؤ بالعريس أو الوظيفة أو الغيمة البيضا، أو العصفور "اللي رح يجيب خبر حلو".

يان...

آخر الصباحات على شرفة بيتنا كانت فيها ضحكات صبايا يجتمعن حول كعكات كنافة، مناقيش زعتر وجبنة ولحمة بعجين..... أدري أنك لا تعرف كل هذا، وأن كل حكاياتي قد لا تعني لك شيئاً، فأنت لم تر

بيروت إلا مرة واحدة، ولم تعرفها من قرب، لم تكشف إلا وجهاً واحداً لها. لم يكن هناك وقت لآخذك من يدك لتكتشف وجوه المدينة الكثيرة، وتختار أياً منها يناسبك. سأحاول أن أفعل هذا الآن.

هل كل مدينة لها وجوه عدّة؟

في صباحات الآحاد كنت أختصر تلك الجلسات الحميمة وأراها مضيعة للوقت.. من دون تخمين أن كل تلك الألفة وذاك الدفء سيتشتت شمله... كنت أضحك من ابنة الجيران "وفاء" التي تنتظر العريس، وخلال رحلة الانتظار تعبئ وقتها بالطعام اللذيذ، "وفاء" التي لا تكترث بوزنها، بل تقدم لك كلما التقيت بها جدولاً بأفضل المطاعم ومحلات الحلوى، ثم قبل مغادرتها تترك في يدك قطعة شوكولا "باتشي". شُردت "وفاء" من منزلها كما حصل لـ"أم حسن". أعرف أخبار وفاء عبر الهاتف، أما "أم حسن" فقد انقطعت أخبارها لأنها لا تؤمن بالتكنولوجيا ولا تستعمل الهاتف النقال.

كثيراً ما تخيلت أن كل الاشياء باقية، لكن هذا لم يكن صحيحاً لأن الأشياء تتعرض للغدر أيضاً. وها أنا الآن في مكان آخر، في مكان ليس غريباً، ولا أليفاً. وفي الليل أظن أني أسمع صوت عزف بيانو في العتمة، وكلما سرت في العتمة أكثر، ازداد ارتفاع صوت الموسيقى المجهولة. وفي الأعلى ترتفع أصوات القذائف.

البارحة، كان النهار طويلاً ومرعباً، أخبار الحرب في كل مكان، لا يمكن الهرب منها. أشمّ رائحة بيروت، تعبق بأنفي رائحة تتجمع فيها

عصارة كل الحروب التي مضت، وها أنا الآن من ذاكرتي الواعية هذه، أصير جزءاً متشابكاً مع الحدث. نكتشف أننا من الممكن أن نعيش مع الخراب، مع خراب المدينة، وخراب الجسد.

هل ستحكي لي يوماً عن جسد مارغريت، عن رؤيتك لهرمه، لخرابه!

أود أن أحكي لك عن التلف الذي يتجمع طوال هذا الوقت تحت سطح مدينتي، بيروت التي هرمت وتخربت أيضاً.

في الليلة الماضية كان علي أن أنام قليلاً، وأن أحس ببعض السكون لأني أنام تحت غطاء رقيق، لونه أخضر فاتح. لم أنم، رغم أني ألقيت الغطاء الأبيض بعيداً واستبدلت به الأخضر، لا أحب الأغطية البيضاء، تذكّرني بالموت، لكني أحب قميصك الأبيض.

لكن ما علاقتك أنت بكل هذا، وما الذي يعنيه أن تصل رسائلي إليك أو لا تصل؟

ما الذي يعنيه أن أكتب هذه الرسائل، هل هذا مهم حقاً؟

يحدث لي بشكل دائم أن ينحرف بي التفكير بعيداً، نحو تاريخ آخر، وقصة حدثت في مكان بعيد عن بيروت، في مكان يبعد ساعتين عن باريس. لأي الأسباب أتتبع قصتك معها بما أن كل الأشياء تزول في النهاية؟

* * *

مارغريت لم تعد تفكر في الكتابة عن الحروب التي تتذكرها، ولا عن الأطفال الذين فقدوا أطرافهم في أتونها. بل تريد توثيق موت

عابر عرفته، موت عايشت لحظات نزاعه مع الحياة، موت هامشي ستنقله على صفحات كتابها، لأنها تراه مهماً. إنه موت ذبابة زرقاء كانت نهايتها عند حافة النافذة، تلك الذبابة كان دانيال هو السبب في قرارها أن تكتب عنها، أن تؤرخ لموتها، لانتهاء حياة الذبابة، ولزوال جزء من الزمن. هي التي يعذبها وعيها المستمر بزوال هذا الزمن مع مرور كل دقيقة، لو لم ترَ العطف الذي تعامل به دانيال مع الزر المكسورة، لم تكن لتفكر بموت هذه الذبابة أبداً.

دانيال أو داني ـ كما تحب مناداته، هو الرجل الوحيد الذي كانت تكتب خلال وجوده، كان يمارس التأمل وهي تكتب، يصنع لها شراب البابونج الساخن، ويستمع لإحدى مقطوعات باخ. كان داني حكيماً صوفياً لا تعرف متى يظهر، أو يختفي، أو متى يسافر للقاء معلمه في الهند. حضوره في حياتها يكاد يكون طيفياً، غموضه يدفعها للشك في حقيقته. اليوغا جعلت جسده مشدوداً، وحين تلامسه تجده ليناً. حين عرفت بموته أشعلت شمعة وبخوراً، وبكت كثيراً عند حافة النافذة، ثم شاهدت شبحه منحنياً عند شجرة الورد الصغيرة التي نمت في غيابه، بدا كما لو أنه يتفحص أوراقها. لوح لها بيده ضاحكاً، ثم غاب مبتعداً. إنها الضحكة التي تعرفها جيداً، لقد شاهدتها من قبل في غيبوبتها الطويلة. كان داني يحزن حين تنكسر زر عن جسد معطف. مارغريت تقول: "الزر المكسورة"، وكان يقول: "الزر التي فقدت نصفها. تعلمت مع داني كيف تتحول الأشياء إلى أرواح. كان يمسك سبابتها ويضعها عند فتحات مرور الخيط الموجودة عند الجزء المعلق من الزر، ويقول لها: "هذا الجزء يحس بالحزن على الجزء الذي فقده".

يذكرها يان أندريا بداني، ثمة تشابه بينهما لم تتمكن من اكتشافه، ربما تلك الابتسامة الهادئة، أو الرغبة في التواري، نعم ربما

هذه هي الصفة المشتركة بقوة بينهما، كلاهما لا يحب الضوضاء، ويتعامل بخجل مع الأشياء، كلاهما حنون، وقادر على العطاء بمحبة، من دون الاحتماء بالصبر. أما هي فكانت قوتها النـزقة التي يراها الآخرون حادة مثل عاصفة، كافية أن تبعد عنها أي شعور بالارتباك أو الرغبة في التواري، هي الآن لديها إحساس بالحاجة للعزلة، العزلة بعيداً عن أي أحد، فقط كي تكتب. وهنا في بيتها هذا، تنكسر هذه العزلة بـأصوات الأطفال الذين يركضون قرب بركة الماء، يتراشقون بالتراب وعصي الأشجار والحصى الصغيرة، لكنها حين تراهم تجد نفسها منجذبة إلى تأمل ضحكاتهم، وتدافع طفولتهم الفائضة. كانت تحس أن تلك الطفولة تسير إلى التناقص يوماً بعد يوم، ولن يلبث هؤلاء الأطفال أن يكبروا بسرعة ليجلسوا على الشرفات ويشاهدوا اندفاع أطفال آخرين مكانهم. كان هذا التفكير الحلزوني، يدخلها في متاهة لا تؤدي إلا لمزيد من الجدل حول فكرة الزمن ووهم الغايات، وحول أيامها التي تمضي بسرعة، فيما الشغف يرهقها لإنجاز ما لم تتمكن من كتابته بعد. ثمة فوضى عابثة تسري في دمها، تدفعها للثورة على فكرة "الوقت"، وتسحبها نحو تفاصيل ماضية وأليمة، لم يتشارك معها أحد في إعادة ترتيبها.

* * *

الوقت الذي تمضيه زينب في صياغة التفاصيل، يكون مغموراً بكل أنواع الالتباسات والأسئلة التي لا تكتمل لأنها تحمل شكاً. في تلك الأثناء يبدو هاجسها الأول التحرر من سيطرة جسدها الذي تحس بثقله، والاستسلام الكامل لحالة من الوعي المفتوح على احتمالات شتى.

كانت الساعة الأولى من الصباح، وهي تجلس قرب نافذة الصالون

تنظر إلى الشارع الغارق في ظلام خفيف. بعد قليل سيستيقظ العالم، وستعود هي إلى كل الأشياء الأخرى التي تأخذها من دائرتها الأولى. لكن في هذه اللحظات تبدو لها المدينة كما لو أنها مغلفة بغشاء شفاف، أثيري، لا تقدر الحرب على اختراقه.

في ساعات الفجر نسيت أن هناك حرباً، غابت عن ذهنها تلك الحقيقة المرعبة في غمرة انشغالها بالبحث عن الخيوط المفقودة، حتى اللحظة التي سمعت فيها صراخ امرأة يشق صمت الشارع إلى نصفين، صوت لم تتبين مصدره وهي تنظر من النافذة. لكنه تكرر كما لو أنه مناداة على أحد ما. كانت المرأة تتوقف لثوان كي تلتقط أنفاسها، ثم تستأنف الصراخ في همهمات غير واضحة، لكنها في الغالب تحمل نداء ملتاعاً.

قررت زينب النزول إلى الشارع، استبدلت بثياب نومها زياً رياضياً ترتديه في الأحداث المفاجئة أكثر مما ترتديه للسبب الذي اشترته من أجله. وضعت غطاء رأسها، ثم نزلت الدرج بسرعة.

بعد أن غادرت المبنى، وحين نظرت يميناً، وجدت امرأة وحيدة، تجلس على الأرض وأمامها بعض الحاجيات الملفوفة على شكل صرة كبيرة، ربما تحتوي ثياباً أو أغطية للنوم. عرفت زينب على الفور أن هذه المرأة مهجّرة من الجنوب، وربما تكون وصلت تواً من ضيعتها إلى بيروت. كانت نحيلة جداً، ترتدي تنورة سوداء طويلة وواسعة، وقميصاً أزرق بأكمام طويلة، بدا أنه قميص رجل. كما كانت تضع غطاء رأس أسود. وجهها أسمر جاف وفيه حروق من أثر الشمس، وخطوط تجاعيد

واضحة عند الجبهة. تتالت عبارات المرأة وهمهماتها عن ابنها الصغير الذي ضاع بعد أن وصلت بيروت. أشارت بيدها إلى مدخل المبنى وهي تحكي لزينب أن قريبها يعمل ناطوراً في هذه العمارة، وأنها وعائلتها هربوا ليلاً مع جيرانهم، كانوا منقسمين على سيارتين، الأب والولدان وخمسة ركاب آخرين معاً، أما هي وابنها الصغير ذو الأعوام السبعة فقد حُشروا حشراً في سيارة أحد أبناء المنطقة كي يصلوا إلى بيروت. كانت اتفقت مع زوجها أن يلتقوا هنا – أشارت إلى المبنى بيدها – لكن حين وصلت لم تجد قريبها، كما أن زوجها وولديها لم يصلوا، غفت هي وابنها عند مدخل المبنى، وحين فتحت عينيها لم تجد الطفل.

سارتا معاً في الشارع بخطوات واسعة، مجهولتان، كلتاهما مجهولة تماماً عند الأخرى، لكنهما في هذه اللحظة بدتا متقاربتين جداً. كانت زينب تفكر في ما تفعله الآن، وهي تسير مع هذه الأم التي تبحث عن ابنها الضائع. كانت تنسج احتمالات عما يمكن أن يحدث! طفل ضائع، وزوج وولدان مجهولا المصير، وامرأة لا تكف عن إطلاق لوعاتها وتوقعاتها المريرة، وجمل متفرقة عن الحرب وما تفعله.

تلاشت غلالة الهدوء أمام ضوء النهار الذي بدا قوياً، ينعكس على زجاج السيارات التي تعبر مسرعة. وقفت زينب قرب مدخل "حديقة الصنايع"، وأوضحت للمرأة أن عدداً كبيراً من العائلات المهجرة يقيمون في الحديقة، وأن الطفل من الممكن أن يكون سار إلى هنا، واصطحبه أحد الأهالي إلى الداخل. عندما تقدمتا خطوات إلى الحديقة التي بدت مزدحمة بالخيام المنصوبة قرب الأشجار، وبالغسيل المنشور هنا وهناك، وبحاجيات

المعيشة الأساسية المنتشرة على الأرض، اقترب منهما رجل طويل، أشقر، ذو لحية خفيفة، ومعه شاب مراهق، سألهما عما تبحثان. سارعت زينب لسرد القصة باقتضاب بينما صوت المرأة يرتفع في نبرته عن صوت زينب وهي تحكي تفاصيل عن شكل ابنها، وطوله، وما يرتديه من ثياب. مسح الرجل على لحيته وهو ينظر إلى الشاب المراهق الذي معه ويقول له: "ولك يا حسين، كأني سمعت خالك نجيب بيقول إنه لاقوا ولد ومش عارفين مين أهله، نط شوف وينه".

اختفى الشاب المراهق عن الأنظار، أما المرأة فقد ارتفع صوتها في مزيج من الدعاء والندب، فيما الرجل يتمتم عبارات متقطعة مثل: "طولي بالك يا أختي، الله الحامي، اللي خلاه يوصل لهون وما يصير له شي بيرجعه لحضنك بالسلامة".

بعد مرور دقائق بعمر دهر، ظهر الشاب المراهق متجهاً نحوهم وهو يمسك بيد طفل معه، عرفت زينب أن هذا الطفل هو الابن المفقود، فقد انتابتها قشعريرة والأم تندفع راكضة نحو الولد تعانقه، وتتحسس جسده، ثم تحمله قليلاً بين ذراعيها قبل أن تمسك بيده وتسير نحوهما. ابتسم الرجل بفرح، وراح يتمتم بعبارات أخرى: "حمد الله على سلامته، انتبهي عليه، هالمرّة الله ستر ووصل لهون... المرّة الجاية ما بتعرفي شو بيصير".

سارت زينب مع الأم وطفلها، كانت تحس بفرح أيضاً من سير الأمور بهذا الشكل. الأم تمسك الطفل في يد، وصرة حاجياتها في اليد الأخرى، وزينب تستمع إلى تبدل نبرة الأم في حديثها مع الطفل، كانت تعاتبه على فعلته، كيف إنه استيقظ وغادر وحده نحو الشارع المجهول.

ابتسمت زينب في سرها وهي تتخيل أن الطفل لديه رغبة الاكتشاف لكنه لا يملك وعياً عن اختلاف الأماكن، وأنه قام بما يقوم به عادة في بيتهم في الضيعة، سار خطوات في الجوار إلا أن خطواته وصلت به هذا الصباح إلى حديقة المهجرين، وهو لا يعي أن ما فعله فيه أي خطر.

حين وصلوا إلى مدخل المبنى، وجدت زينب من الصعوبة أن تترك الأم والطفل في الشارع، لكنها لم تحسم أمرها بدعوتهما إلى البيت، إلا أن الأم بادرتها بالسؤال عن فرن قريب يبيع المناقيش، عرفت زينب أن المرأة جائعة، فطلبت منها الصعود معها إلى أعلى.

السكون يخيم على البيت، ما زال الجميع نائمين. الستائر تحجب الشمس، والكهرباء المقطوعة ساهمت في تكثيف العتمة. حين جلست المرأة وطفلها في الصالون بدا عليها الارتباك والخجل وهي تجول بعينيها في الأثاث الفخم، وحين عادت زينب ومعها صينية الطعام، كررت المرأة توجيه الشكر لها لمساعدتها على إيجاد الطفل، ثم بادرتها بالسؤال عن هويتها، وإن كانت من سكان منطقة "الصنايع". حكت لها زينب أنها وعائلتها مهجرون أيضاً من "الضاحية الجنوبية"، وأن هذا بيت خالها. ظهر على وجه المرأة شيء من الارتياح، كما لو أنها أحست بتقارب مع زينب.

بدا على المرأة أنها لم تتناول طعاماً منذ ساعات طويلة، أما الطفل فكان يبدو عليه النعاس وهو يرفض الأكل ملتصقاً بأمه. لكن المرأة توقفت عن الأكل حين تقدمت والدة زينب إلى الصالون خطوات عدة تستكشف هوية الحاضرين، وحين تأكدت أنها لا تعرفهم، ألقت تحية

مقتضبة وانسحبت إلى الداخل وهي تنادي على ابنتها. أحست زينب بالارتباك، سارعت نحو المطبخ حيث تقف أمها، التي انهمرت بأسئلتها عن المرأة وابنها.

كانت كلمات الأم لزينب كافية لإنهاء الموقف. وقبل أن تعود زينب إلى الصالون كانت المرأة تقف هي وابنها مستأذنة بالانصراف، إذ عليها البحث عن زوجها وولديها. سلّمت على زينب بحرارة، وكررت شكرها، حاولت زينب أن تعرض عليها المال، إلا أنها رفضت باصرار، وسارعت في نزول الأدراج المظلمة مع ابنها، وصرة حاجياتها.

ألقت الأم نظرة مقتضبة على صينية الطعام الموضوعة في الصالون، ثم سارت إلى الداخل وهي تحمل صينية القهوة، بعد دقائق حين عادت الكهرباء طلبت الأم من زينب أن تقوم بتشغيل التلفزيون لتسمع الأخبار وجديد الحرب. لم تعاود زينب الحديث عن المرأة المهجرة، ولا عن ابنها الذي ضاع، كما لم تطرح الأم أي سؤال إضافي على الأسئلة التي طرحتها في المطبخ.

كلتاهما جلست في صمت، الأم أمام التلفزيون، والابنة أمام جهاز الكمبيوتر قرب النافذة. حين نظرت زينب إلى أسفل شاهدت الشارع مختلفاً عنه في الصباح الباكر، رجل عجوز يتبول قرب عامود الكهرباء، شبان يعبرون بالموتيسكلات بسرعة، سيارات محملة بأشخاص كثيرين، وحاجيات، وسيارات أخرى ترتفع منها أغنيات عن الحرب، وتبدو محملة بغالونات ماء وأطعمة، بفرش، وبطانيات. وجوه كثيرة تعبر الشارع تستقبل يوماً جديداً من أيام الحرب. يوم تؤكد هويته أصوات القذائف

المتساقطة في مكان لا يبعد كثيراً عن هذا المكان.

* * *

يان...

أنت تغفو في مكان بعيد.. في مدينة لا تعرف الحرب. بإمكانك أن تجلس على الرصيف وتشرب قهوتك وتقرأ الصحيفة، وتتأمل العابرين.

أعيش في مدينة لم تنته بعد من مسح الدم المتخثر من حروب سابقة. هناك مدن ممسوسة بالحرب، أدمنت الدم، ورائحة البارود.

في هذه الساعة من الليل الثقيل، أرغب أن أرتدي رأس إله لأبتدع تصاميم جديدة للثقوب السوداء المحفورة في داخلي، أن أحل الخيوط المتعثرة من جديد، وأزرع زهوراً حقيقية يداعبها نسيم الفجر، زهوراً تنام على جلدها الرخو فراشة تحلم، فراشة غير خائفة ولا يرعبها وجود أقدام جنود أعداء على الأرض.

أرغب أن أرتدي ذاكرة إله لا تعلك تلك السنوات التي لن تسقط فيها أشعة الشمس على وجه الأرض. رأس إله ينفخ في الأرواح ما يكفي من الضوء لمسح ظلام الذاكرة.

صار صعباً علي الإحتماء بصوت "فيروز"، بكلماتها حين تردد: "يالله تنام ريما.... يالله يجيها النوم".

تبدو هذه الكلمات منتمية لعالم آخر، يشبه العالم الذي تغفو فيه

أنت.

منذ الحرب ما عادت أغنيات "فيروز" تحتل الصباح، قمنا بخيانة قسرية لها.

منذ الحرب بردت القهوة أمام نشرات الأخبار، ومنذ الحرب أيضاً كتبت إليك ولم ترد.

هل علي الانتظار كثيراً أمام النافذة؟

بعد الحرب، تغيرت لغتي، تبدلت حروفي وتداخلت لتشكل لغة أخرى لا أحد يفهمها أبداً، لغة حروفها تشبه حروف الرسالة المتشابكة التي وصلتني عبر الإيميل، والتي لم أفك طلاسمها حتى الآن..

أنت لا ترد على رسائلي، وأنا سأستمر في الكتابة، لأني لا أكتب لك، أكتب عنك، وعن مارغريت، وعني.

* * *

في الليل، وقفت مارغريت طويلاً أمام المرآة. نظرت إلى نهديها، كانا صلبين ومتماسكين في وقت ما، في زمن بعيد. كانت على ثقة أنهما أجمل جزء في جسدها، لكنهما لم يعودا كذلك، هي لم تعد هي، هذه السيقان التي تظهر عروقها النافرة، غريبة عنها، هذا الجلد المتغضن ليس جلدها، متى حدث له كل هذا التحول؟، كيف تم في غفلة منها؟ لكن الانهيارات لا تحدث فجأة، ثمة تصدعات داخلية تبدأ بالتجمع من دون أن نراها، وحين تظهر يكون كل شيء قد انتهى، ويصير الترميم أمراً شكلياً لا يطال الجوهر الأصلي. هي ليست البنت الشابة التي كانت تركض سراً للقاء العاشق، هي ليست المرأة التي تندفع بنهم نحو الحياة،

الحب، الشهوة والكتابة. ثمة أشياء تفتر مع الوقت، لكن وحدها الكتابة ظلت معها في كل المراحل ـ أما يان أندريا وحضوره الذي يكسر عزلتها، فلا يسبب لها سوى إرباكٍ يفجر أسئلة عن شتى أنواع الحقائق التي أفنت عمرها بحثاً عنها.

خيانة الجسد تبدأ سريعاً، تحس بالعجز، أسرع بكثير مما تتوقع. ومع خذلان الجسد وخيانته، تبدأ الحاجة للعزلة والصمت، الحاجة الملحّة للكتابة، للتخلص من ذاكرة تسيل تفاصيلها وتختلط مع الأحداث اليومية. لقد وعت أنها بحاجة للفصل بينهما: بين اليومي والمتذكر، ومن أجل هذا الوعي فرضت على نفسها اعتياد العزلة والتآلف معها. الكتابة لن تأتي إلا مع صمتها الطويل، حينها ستتحرك الأشباح القابعة في داخلها بحثاً عن الحرية، عن حياة جديدة عبر كلماتها. وحين يحصل كل هذا تنتبه مارغريت للخيانات اليومية التي يرتكبها جسدها. هل هناك أبشع من خيانة يَدِكَ حين تنوي الكتابة، ارتعاشة المفاصل، تمرد الأصابع عن إمساك القلم؟ أنت ضعيف، واهن، لا تملك كلمة آمرة على أعضائك، مع مرور الوقت عرفت "ماغي" — هكذا كان يناديها دانيال ـ بأنها تهدهد جسدها، وتحايله، تتوسله سراً ألا يصل في خياناته حداً لا رجوع منه، لأنها لن تقوى على احتمال ذلك. لكن الواقع يختلف عن تخيلاتنا عنه، والوصول إلى النهايات أمر حتمي لا فرار منه، لكنها كانت تناقش نفسها في طبيعة تلك النهاية وسرعة فوران حدوثها.

ســ..ـتــ.. ـمـ..ـو..ـت

لكن كيف ستموت!

فكرت أنها تود أن لا تتآكل ذاكرتها، وأن تذوي يوماً بعد يوم

من دون أن تتنبه، أو تملك أي قدرة لإيقاف ذاك الانكماش الحتمي. لمعت في ذهنها صور الجثث في هيروشيما●، تذكرت الأطفال المتآكلة أطرافهم، العيون الفارغة التي تركت مكانها فجوة، الأرجل المقطوعة، والجلد المشوه. لم يبق من كل تلك الصور الكثيفة داخلها سوى ومضات تبرق سريعاً على أكثر الصور إيلاماً. كتبت كثيراً عن تلك الصور التي عذبتها طويلا، لكنها بعد مرور زمن على الكتابة، اكتشفت أن الكلمات لا يمكن أن تكون وسيلة لمحو الذاكرة، أو للتخلص مما نريد التخلص منه، فالكتابة طريقة لإعادة تكوين ذاكرة جديدة في كل مرة. حذف، إضافة، هدم وبناء، مثل لعبة المكعبات الصغيرة التي يركب منها الأطفال بيوتاً تتشابه ولا تتناسخ.

* * *

بعد أيام، تجرأت زينب على الدخول إلى "غرفة البنت القتيلة"، قررت تنظيفها، والتعامل معها كجزء طبيعي من البيت. لم يكن في الغرفة المشؤومة، سوى سرير وخزانة ملابس بنية لامعة، وكومدينو صغير قرب السرير. تبدو الغرفة مميزة عن سائر الغرف بوجود نافذة عريضة، تطل على الشارع الرئيسي. وهي تفتح النافذة، بدا لها صوت صرير الأباجور الخشب، مثل نحنحة رجل عجوز تجاوز الثمانين، ويعاتب الدنيا على

رواية " هيروشيما حبيبتي" رواية شهيرة لمارغريت دوراس، وتم تحويلها إلى فيلم سينمائي.يتناول الفيلم مأساة القنبلة النووية الأميركية التي أُلقيت على مدينة هيروشيما اليابانية عام **1994**. قام ببطولة الفيلم الممثل الياباني ايجي أوكادا، والممثلة الفرنسية ايمانويل ريفا، ومن اخراج آلان غربيه. ●

هجرها له. غمر نور كثيف المكان، وبدت الغرفة المهجورة تتشرب الضوء بعطش بالغ.

لم تعلق الأم على ما تفعله زينب، لكنّ أخيها الأصغر "سامر"، دخل ووقف في وسط الغرفة، وهو يسألها بمداعبة إن كانت تجرؤ على المبيت فيها. ولما ردت زينب بالإيجاب وهي مستمرة في عملية التنظيف، أعقب على كلماتها بأنه يفكر أيضاً بالمبيت في هذه الغرفة أفضل من مبيته في الصالون. ابتسمت له زينب، وهي تدعوه للخروج من الغرفة.

لما اقتربت من أباجور النافذة كي تغلقها وتعود الغرفة إلى صمتها الأولي، أحست كما لو أن صوت صرير النافذة أقل هذه المرة، وكما لو أن رسائل امتنان تطفو في هواء الغرفة الداكن.

رن الجرس رنات متتالية، فتحت الأم الباب، فوجدت ساندرا بقامتها الطويلة، ووجهها المتوهج من أثر الشمس. استقبلتها الأم بحب، وتبادلا العناق، كانت الأم على علاقة طيبة مع ساندرا، لأن الفتاة تملك حدساً ذكياً في التعامل مع والدة زينب. وكانت الأم ترى في ساندرا فتاة جميلة، وعملية، وقادرة على المشاركة في الحوار حول موضوعات متنوعة، والأهم من هذا بالنسبة للأم أن ساندرا صحافية تعمل في الجريدة، وتظهر في التلفزيون بين حين وآخر، كضيفة تشارك في البرامج الحوارية.

جلست ساندرا في الصالون مع الأم، تبادلتا أخبار الحرب لأكثر من ربع ساعة، قبل أن تأتي زينب وتسحب صديقتها معها نحو المطبخ.

غلاية الماء على النار تصدر صوتاً مكتوماً. ترفعها زينب بهدوء كي تضع فيها مسحوق البُن الأسود، تفوح رائحة القهوة الزكية وزينب تحرك الملعقة بيدها اليمنى وتنظر نحو ساندرا الجالسة أمام الطاولة المربعة تكمل حكاياتها عن الحرب وتستعرض على كمبيوترها المحمول الصور التي التقطتها في "الضاحية الجنوبية"، وتعلق بين صورة وأخرى عن المكان، وكيف تساوت الأبنية بالأرض، قالت: "شي محزن، دمار، دمار ما بينوصف".

تخبرها زينب أنها تفكر بالذهاب إلى بيتهم خلال "وقف إطلاق النار" الذي تحدد بمدة 24 ساعة. تصمت ساندرا قليلا، ثم تعلق بعبارة: "حمد الله بيتكم ما صار له شي كبير، بس أبواب البلكونة والشبابيك تدمرت، بس لسه صامد، ما في داعي تروحي... خلص خَبّرتك إنه صامد". تبتسم ساندرا وهي تقول العبارة الأخيرة، ثم تحكي لزينب عن قرار كارمن ورجا أن يتزوجا بعد يومين. ترد زينب بدعابة بأن هذا قرار صائب الآن كي ينجبا طفلاً بعد تسعة أشهر يسميانه "سلام"، سواء كان ولداً أو بنتاً، إذ من يدري متى ستنتهي الحرب. كانتا تتحدثان عن الحرب الحالية، وتتذكران الحرب الماضية المختزنة في ذاكرة طفولتهما.

حكت زينب لساندرا عن إحساسها أنها في سجن، ورغبتها في الذهاب للقاء مازن لكنها تخجل من الحب فيما الناس تموت. ضحكت ساندرا كثيراً من ربط زينب الوثيق بين الحرب وحاجتها للحب، ثم حكت لها أنها تلتقي مع فادي كل يوم، بل وأنهما ذهبا معا للسباحة في الأسبوع الماضي.

لكن زينب التي كانت مشغولة في التفكير بالتدابير التي تعايش فيها الناس مع الحروب الطويلة التي حلت بالبلد، بدت لها فكرة "السباحة" خرافية في وقت الحرب. كانت السباحة بالنسبة لها استسلاماً كاملاً لجسدها، أن تحيا غبطة خاصة من خلاله، غبطة تبعثها الحرية، حرية العوم الذي يتماهى مع حالة من التحليق التام. لكنها غير قادرة على هذه الحرية الآن، لأنها تحس أن جسدها مكبل، وأن ساعات آخر الليل، قرابة الفجر حين تكتب، هي الساعات الوحيدة التي تقدر أن تطفو فيها بعيداً، نحو الأعلى.

صديقتها، تواصل استعراض صور الدمار، وربطها بأسماء الأماكن للتعريف بالصورة، بدت غالبية الصور مجرد لقطات متشابهة للخراب، كما لو أنه من الممكن شم رائحة البارود عبر الصور. نظرت زينب إلى ساندرا التي تحمل فنجان قهوتها بكلتا يديها، كانت قامتها الطويلة أشد نحولاً، أو هكذا تخيلت زينب، وتحت عينيها الخضراوتين، هالات سوداء واضحة. أشارت زينب نحو عيني ساندرا وهي تسألها: "ليه هيك؟"، أجابت بأنها لم تنم منذ أيام، لكنها لم توضح السبب. قالت كلماتها وهي تحمل حقيبتها الكبيرة التي تحتوي الكمبيوتر والكاميرا، وأشياء صغيرة أخرى. تسير نحو الممر استعداداً للمغادرة، تتمرد خصلات شعرها الأجعد الأمامية على ملقط الشعر الذي تحبس فيه شعرها الكستنائي الكثيف، تحركت تلك الخصلات بخفة في الممر شبه المظلم. للحظات أحست زينب أن ساندرا كائن شبحي غريب، بذاك "التيشيرت" الأبيض الذي لا يتلاءم مع جو الحرب، وبنطالها الجينز الأجرد، حملت حقيبتها

على كتفها الأيسر وهي تودع زينب التي طلبت منها أن تبلغ سلامها لـــ"ماما تيريز".

من نافذة المطبخ التي تنظر زينب عبرها إلى الشارع، يبدو المكان هادئاً جداً وأليفاً، ليس له علاقة بالحرب التي تقع في مكان قريب. كانت السيدة العجوز في الشباك المجاور تسقي نباتاها وورودها التي تتدلى خارجاً ممسوكة بقوالب حديدية تحتضن أوعية الورود والنباتات البيتية المزروعة في أصص صغيرة. تمنت زينب أن يكون في مطبخها مثل هذه الأصص، لكنها تذكرت أن هذا غير ممكن لأنها لا تنتمي لهذا المطبخ، وأن وجودها فيه لزمن مؤقت ليس إلا.

بعد يومين حين سارت "زينب" في الشارع الذي تسكن فيه "كارمن" في الأشرفية لتحضر حفل زفافها مع رجا، لاحظت غياب "إيلي" الرجل المخبول الذي كان يقف دائما عند أول الحي، يرتدي ملابسا رثة، ويترك لحيته طويلة جداً ويصرخ بالمارة: "يا يسوع، يسوع المخلص، يا عدرا مريم".. يردد ابتهالاته وهو يمد يده للمارة كي يعطوه بعض المال، وفي بعض الأحيان كان يقول: "بدي أشتري منقوشة، بدي لحمة بعجين". في بداية قدومها إلى بيت كارمن كانت تخاف منه، لأنها تخاف من المخابيل عموماً، بخاصة حين يمتلكون جرأة "إيلي" في إقترابه للحديث مع العابرين في الشارع. لم يقترب منها "إيلي" سوى مرة واحدة، حين قال لها، وهو يرفع يده قرب رأسه كما لو أنه يؤدي تحية عسكرية: "بونجور مدموزيل، بدي أشتري منقوشة"، تكلم بكل تهذيب وهي تنظر إلى عينيه الرماديتين، وثيابه الرثة، بدا لها حينها رجلاً منكوباً،

عمره ألف عام. أعطته زينب النقود، ومضت، لكنها ظلت تتلفت نحوه، فيما ظل واقفاً يستوقف المارة بأسلوب مختلف كل مرة. لا أحد يعرف حكايته، لكن جميع من يتردد على بيت كارمن يعرف "إيلي" ويتندر بطرائف عنه.

الشارع كان ساكناً تماماً، وكان "إيلي" غائباً عنه. فكرت زينب أنه ربما اختفى بسبب خوفه من الحرب، وأن أصوات القذائف البعيدة جعلته يمضي بلا هدف، لظنه أنها ستصل إليه حتماً. فكرت أن إيلي ربما فقد عقله بسبب إحدى الحروب السابقة، والكثيرة، ربما كان قائداً، أو جندياً، ربما شاهد كثيراً من الجثث حتى جُنَّ.

السكون الذي خيم على الحي في ذاك العصر، سخونة الهواء التي عبقت بأوراق الشجر، ولون السماء الفضي المائل إلى الزرقة الثقيلة، أمور جعلتها تفكر في تناسب هذا الوقت كي يتم فيه زفاف كارمن ورجا. الجو الصيفي العابق بالسخونة، لا يوحي بالحرب، لكنه لا يشجع على الفرح أبداً.

وسط الحاضرين، بينما تنظر إلى كارمن في ثوبها الأبيض، أحست زينب أنها غائبة، رغم أن الموسيقى لم تكن تصدح عالياً كما يحصل في حفلات الزفاف التقليدية، لكن ثمة انشطار في داخلها. هي تعيش في بلد هش، جزء منه فيه حرب، وجزء آخر من الممكن أن يحتفل الناس فيه بفرحة الزفاف.

ماذا تفعل هنا؟

هل أتت لتشارك بالفرح؟ لأي قسم من البلد تنتمي هي؟

الانشطار الذي تحس به يتمدد وينقسم على نفسه، يتحول في أجزائه الكثيرة إلى كم من الأسئلة لا تجد إجابات عنها، أسئلة ترتفع عالياً كما في التغيرات الجيولوجية حين تنشق الأرض ويخرج منها جبل كامن. يحدث أن يخرج منها جبل من التساؤلات لا يمكنها تجاوزه.

لكن، لِمَ عليها أن تقول "لا" للحظات فرح مسروقة، أتت بالصدفة؟

لِمَ عليها أن تجلس عند النافذة، تراقب مذبحة الحرب، وضحاياها؟

لِمَ يحدث كل هذا! فقط لأنك حين تكون من (ب. غ)* فهذا يعني أنك لست من (ب. ش)**، وحين تكون من (ض. ج)*** فهذا يعني أنك لست من (ب. غ)؟

أليست هذه هي المعادلات التي تحكم البلد؟

فكرت أنها لا تحب كل هذه المعادلات التي تفرض حضورها في عالمها، فكرت أنها تحاول مقاومتها بكل ما أوتيت من قوة. لذا هي موجودة هنا الآن لتشارك كارمن ورجا فرحة زفافهما.

في اليوم التالي خلال نشرة الأخبار، ورد ذكر زفاف كارمن ورجا في إطار الحديث عن البلد الذي يقاوم الحرب. تحدث رجا أمام الكاميرا

---

* ب. غ: المقصود فيها بيروت الغربية.

** ب. ش: بيروت الشرقية

*** ض.ج: الضاحية الجنوبية لبيروت

بأن موعد زفافهما كان محدداً من قبل حدوث حرب تموز، وأنه لن يدع الحرب في كل مرة تفسد خططه في الحياة. حكى رجا عن فقده لوالده خلال الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، وعن توقفه عن الدراسة في الحرب الأهلية، ثم كرر كلامه أنه لن يترك هذه الحرب الجديدة تُفسد أحلامه.

فرحت زينب وهي تسمع كلام رجا على التلفزيون، غمرها حالة من البهجة بالحياة، والقدرة على الفرح، كان أخوها وسام ينظر بسخرية إلى الشاشة ويوجه كلماته إلى زينب ساخراً من رجا بقوله:

"مش هيدا صديقك اللي عامل حاله وطني، ورايح يتجوز وقت الحرب".

* * *

يان

أتراني أكتب بحثاً عن حكاية غافية بين أوهام شتى، أم عن عبث لم أعشه في وقته!

لكن علي الاعتراف أن هناك في أقصاي، في منطقة بعيدة للغاية، مساحة مفتوحة، غائمة، أشبه بأرض فيها شجر غير مثمر، أرض فيها برد، وتهب عليها عواصف تكسر الشجر وتحنيه، وتشقق الأرض، مساحة تهب فيها رياح غير موسمية، بينما أنا أجلس في الطرف القصي من تلك الأرض، أبصرها ولا أتمكن من فعل شيء. في تلك المساحة تماماً، أحس بالبرد الشديد، أحس كأني أنشج نشيجاً مؤلماً، وأحتاج إلى قوة على شكل زلزال من أعماق الأرض كي ترفع الطبقات المتراكمة التي

تمنع دخول الشمس إلي، تمنع الإحساس بالدفء. أتفهمني؟

أدري أن كل الأشياء مؤقتة، تحل وتمضي، ونحن ندور وندور، لا شيء يبقى سوى النواة الأصلية لروحنا، لكلماتنا، لما أمضينا عمرنا نبحث عنه. وأنا عَمَّ أبحث، في وسط هذا الدوران الهادر، في وسط حرب مجنونة، لا ترحم.

يان....

أغمض عيني، فأرى ضوءاً كثيفاً، ولا شيء غير خطوط الكلمات، سرابية، شفافة، كوهم كبير، لكني أبصرك في العتمة، في عتمتي، أراك معها، أرَاكُما معا. أراك في قلب باريس. أراني وحدي في مكان بعيد، معزول، أكتب كلمات لا يقرأها أحد.

* * *

تجلس مارغريت أمام طاولة أوراقها في الطابق العلوي، بين أصابعها قلم لا تسيطر على حركته فتكتب كلمات عشوائية وترسم خطوطاً غير واضحة، تزداد حركة يدها ارتعاشاً كلما أحست بالعجز عن إيصال فكرتها، أمامها كأس ويسكي ممتلئةً حتى نصفها، تناولت منها جرعة كبيرة وهي تنظر من نافذتها إلى الحديقة، تقابلها نافذة ستارتها الخمرية مفتوحة من جانب واحد.

يجلس يان في الجانب الأيمن من الغرفة، أمام طاولة صغيرة، عليها آلة كاتبة، يستمع إلى كلمات مارغريت، وينقر على حروف الطباعة. حين يحس بتوترها يزداد، يتحرك من وراء الطاولة متقدماً نحوها، يضع ذراعه حول كتفها، يسألها:

ـ ما الذي تودين قوله؟

ـ لا أعرف تحديداً. إنه صعب.

ضمها إلى صدره بحنو وهو يقول:

ـ هل هناك ما تودين قوله عني، عنا، عن هذا العالم؟

ـ صعب أن أقول شيئاً عنا، لن أفعل الآن، ربما هناك من سيقول في يوم ما. ربما أنت من سيقول، لكن أنا، الآن، لا، ليس لدي ما أقوله. في أحيان كثيرة أفكر لماذا أنت هنا؟ لماذا لم تمضِ بعيداً، وتأتي لزيارتي من حين إلى آخر، لم تصر على البقاء؟ لكني بدأت الاعتياد على وجودك.

قبّلها يان على وجهها وجبينها، ثم عاد للجلوس أمام الآلة الكاتبة.

ـ دعينا نواصل الكتابة، أو الحديث، كما تشائين.

ـ أحياناً أكون ضائعة، بلا هوية، أحس أني بلا وجه، جسد فقط.. يتحرك بلا ملامح حادة تميزه، أتخيل لو أنني نظرت إلى المرآة في تلك اللحظة، سأرى مكان وجهي مساحة ممسوحة، هناك رأس لكنه بلا ملامح، رأس محمَّل بأفكار مضطربة، لكنه لا يملك عينين ليرى ويكتب، لا يملك فماً ليبوح، ليملي ما يود كتابته. أود كتابة المزيد من الكتب، ما يزال أبطالي ينادون عليَّ ليلاً. يان.. أتدري أن الوقت الذي أمضيه وحيدة هي ساعات نومي القليلة، في صحوي يملأون رأسي بثرثراتهم وضجيجهم، وفي صحوي تكون أنت هنا، أنت يا عاشقي الليلي*.

ـ هل تزعجك ثرثراتهم، أم إنك تخافين من الوقت، ألا تكونين

* هذه العبارة قالتها مارغريت دوراس عن يان أندريا في نصوصها الأخيرة.

أمينة في كتابة كل ما قالوه، تخافين موتهم أم موتك؟

ـ هذا أمر يصعب علي تخيله، أنا وَهُمْ نلعب لعبة تبادل أدوار، لم أكن يوماً غريبة عنهم، كما لم يكونوا غرباء عني، كلنا واحد، لذا سيكون الموت بطيئاً، وتدريجياً لي ولهمَ. عليّ الإيمان بهذا كي لا أخسر كثيراً.

ـ وأنا؟

ـ أنت، بما أننا معاً، فهذا يعني أننا نحب، الحب يعني الحياة، الحياة كلها، يعني الكتابة، وفرح نمسك به للحظات. برفقتك ربما أكون أكثر أماناً، كثيراً ما تمنيت أن أكون برفقة عاشق. هل هناك أجمل من أن أكون مع "عاشقي الليلي"، بكل روعته، بكل الجمال في يديه الطريتين اللتين تحملان غيوماً دافئة؟ لكن؛ أتدري، ثمة ذكريات تعصف بي، تثقل علي، تهاجمني، ثمة صور راسخة، تحتل ذاكرتي، وينبغي علي التخلص منها، وهذا ما لم أتمكن منه بعد. أحاول، وسأظل أفعل.

* * *

ملصقات.. ملصقات، تحاول نزع بقاياها.

تذكر زينب جيداً كلمة "ملصقات"، قالها لها د. رامي في جلسات العلاج النفسي. كانت مندهشة وهي تسمعه يقول: "أنت تتركين ملصقات على ذاتك، ملصقات وضعها الآخرون، وصَدّقتها أنت".

لم تفهم عبارته إلا بعد أن شرح لها أن عليها نزع كل الملصقات التي تراكمت على "أناها" وجعلتها لا ترى نواة روحها الأصلية، قال لها

إنه ليس هناك شيء اسمه "طبيعة بشرية"، وإن ما نظنه طبيعة هو شيء اكتسبناه مع الزمن. يجب أن تنسى كل العبارات التي فيها كلمة "أنا" محملة بصفة معينة رسخت في ذهنها بمرور الأعوام. طلب منها أن تتخلى عن كل تلك الملصقات وترى نفسها من جديد من دون استخدام "أنا.." ملحق بها صفة ما، وغالباً ما تكون سلبية. رأت زينب في ذاك الطبيب شخصاً مثيراً للأعصاب، يسخر منها، ويتحداها بلا سبب، ففي اللحظة التي حكت له فيها أنها لا تحب شيئاً في هذا العالم، ولا يجذب اهتمامها أي أمر، طلب منها أن تذهب إلى الغرفة المجاورة وتكتب على صفحة بيضاء عدد 111 شيئاً من الأشياء المفضّلة لديها، وحين قالت له: "لا أقدر، لا يوجد". رد عليها بفعل أمر قائلاً: "اكتبي، اكتبي عن الأشخاص، والأحداث، والأفلام، والأشياء، حتى ما تعتبرينه تافهاً، يجب أن تكتبيه". في تلك القائمة الطويلة وجدت أنها كتبت عن أمور أحبتها ونسيتها مع الوقت، كتبت عن روايات مارغيت دوراس، عن أفلام شاهدتها، عن مازن، ساندرا، كارمن، وعن أشياء صغيرة لا تهم أحداً مثل "جبنة البارمزيان"، و"التوست بالزبدة".

طلب منها د. رامي أن تحتفظ بتلك الورقة، لكنها مزقتها مراراً، وغيرت ترتيب أولوياتها. حين ستمرض أمها، ستبكي زينب كثيراً، وتحس بالتقصير نحوها، ستمزق الورقة، وتكتب واحدة أخرى تضع في رقم واحد كلمة "أمي". لكن في أوقات أخرى سترى أمها زوجة الأب الشريرة التي تستلذ بتعذيبها، وتمارس عليها كل تسلطها الذي لا تقدر أن تمارسه على أولادها الذكور.

بعد كل جلسة علاج كانت تحس أنها شجرة تم تشذيب أوراقها وقصّ غصونها حتى الحد الأقصى، وأن جلدها عارٍ، لكنه صحي قادر على تحمل حرارة الشمس وبرودة العواصف.

لم يعرف أحد من سكان البيت أن زينب ظلت تتردد على جلسات العلاج النفسي مدة عام كامل. هذا الأمر لم يعرفه أحد سوى مازن.

كانت ترى نفسها "سندريلا"، والفارق أنها تعيش مع أمها وليس مع زوجة أبيها، لديها شقيقان، وهي ليست جميلة مثل "سندريلا". وبالنسبة لأمها، كان من الطبيعي أن لا تتزوج، وأن لا يهتم بشأنها إلا أشخاص من مستوى أقل، لكن لن يلتفت لها أحد ذو شأن رفيع من وجهة نظر الأم، فهي غير جميلة، وبشرتها فيها بثور، وجسدها نحيف وغير متناسق، كما أنها تضع غطاء الرأس. حين أخذت قرار الحجاب كان عمرها 14 سنة، أرادت أن تتميز عن الأم، أن تختلف عنها، وعندما غضبت أمها بشدة وطلبت منها نزع غطاء الشعر، ازدادت رفضاً. كانت تعرف أنها تستفز الأم، لكن هذا الإحساس سَبّبَ لها نوعاً من الانتصار النفسي، الذي لم تفهم علّته في ذلك الحين.

بالنسبة إلى أخيها وسام، هي قطة البيت السمراء، التي تقوم بالإمساك بالفئران، وإحضار كرة الصوف البعيدة. القطة ستظل قطة طوال عمرها، ولن تتحول أبداً إلى فتاة.

تظن زينب أن أمها كرهتها منذ اللحظة التي اختار لها والدها فيها اسم "زينب" على اسم جدتها، كانت أمها تنوي أن تسميها "غابي" لأنها

كانت تحب المذيعة الجميلة "غابي لطيف"، لكن الأب أصر على تسميتها "زينب". فكرت أن أحداث حياتها وربما قدرها كله سيكون مختلفاً لو كان اسمها "غابي"، ربما ستحبها أمها، ربما لن يعاملها أخوها الأكبر بهذا التجبر، ولن ينظر أخوها الأصغر إليها على أنها الأخت الطيبة التي تنظف البيت وتطهو الطعام، وتضع الجزء الأكبر من راتبها في يد الأم.

ربما ما كانوا اختاروا لها دور الابنة- الخادمة لو كان اسمها "غابي". لكن "زينب" هو اسمها الآن، اسمها الذي أحبته لأنها أحبت جدتها، المرأة القصيرة والنحيلة التي تفيض حناناً على الأشخاص والكائنات، جدتها التي من الممكن أن تكون غير مرئية لو أرادت ذلك، المرأة التي تصطبغ يداها باللون الأسود من قطف التبغ وتنقيته وإعداده للبيع.

* * *

يان

سأحكي لك عن بيروت كثيراً.

على شاطئ البحر، أرى في كل مرة وجه رجل عجوز يحمل علماً أبيض ثقيلاً يحني ظهره، وجه الرجل العجوز هو وجه الصياد الذي أراه على شاطئ المنارة، هو وجه الطفل الذي يأكل عرنوس ذرة مسلوقاً، ويحلم بقلم رصاص طويل في أعلاه قبعة من ريش ملون تشبه قبعة زعيم هندي.

في بيروت أحس أني أطفو على قطعة فلّين، وأن البحر رئتي الوحيدة، لكن المدينة مزدحمة بشاشات كبيرة، شاشات تبث أغنيات بليدة،

وإعلانات عن الكوكا كولا ومشروبات الطاقة.

بيروت لا ترى الناس.. ترى صورهم فقط.

الفقراء يبدون على الشاشة أكثر تعاسة وفقراً.

الممثلة السمينة تشكو أن حجمها يتضاعف أمام الكاميرا، فيما الفقراء يرضون أن تتسع جروحهم أمام الشاشة ليتضاعف حجمها، وإلا كيف سيثيرون شفقة الأثرياء، ويسْتجدون أحاسيسهم بفقر عادي؟

ساندرا تقول إن الأغنياء لا يفعلون خيراً حين يدفعون المال للفقراء، لأنهم يعيدون ما أخذوه منهم سابقاً.

لكن بيروت تبدو أكثر شراهة وجوعاً، حيث المرأة العجوز تحكي للمذيعة الملونة عن بناية سكنتها مجاورة للحي التراثي، لكنها سقطت في الحرب، كما تساقطت أسنان المرأة، جداراً على جدار.

سأحكي لك عن الحي الذي أسكنه في "بير العبد"، قرب الجامع، مكان لن تعرفه أبداً، ولن تزوره. إنه جزء من "الضاحية الجنوبية"، تشكلت ملامحه أكثر بعد عام 1982، بعد أن هجّر إليه أهل الجنوب الذين صارت بلداتهم تحت الاحتلال. مكان يزدحم بالناس، الذين يشتركون بالانتماء إليه لأنهم ألفوه وشكّلوه وفق هويتهم الخاصة، هؤلاء الناس يخافون من العودة إلى الجنوب لأنهم دوماً قلقون من حرب جديدة.

سأحكي لك عن أماكن أخرى ربما سمعتَ عنها، أماكن لها هوية مختلفة تماماً عن المكان الذي أسكن فيه. هناك أحياء جانبية في منطقة الأشرفية، في الجميزة، في شارع الحمرا، توجد فيها لافتة حديدية مكتوب

عليها عبارة:"حي ذو طابع تراثي" . تضحكني هذه العبارة، تضحكني حتى الألم، لأنها تعني أن هذا الحي لم يلحقه ضرر الحرب. ولا يحمل دليلاً على ذاكرة الخراب، يا لها من كذبة وقحة. لا توجد حارات قديمة في مدينتي، لا توجد بيروت قديمة، المدينة القديمة زالت منذ زمن، وحلت محلها أسواق حديثة مبنية على الطراز القديم، لكنها بلا هوية، بلا أسرار.

عند الدرج الحجري الذي يربط الجميزة بالأشرفية، تتوزع الأشجار بين البيوت على جانبي الدرج، وتتدلى المصابيح الصغيرة من الأعمدة الحديدية. قرب مزار "مارتقلا" أشعلتُ شمعة، ثم التقطت صوراً عدة. كنت سأنقل الصور إلى الكمبيوتر كي أرسلها إليك، لكن لم يكن هناك متسع من الوقت. رائحة البارود كانت أسرع مني.

بعض الأحياء التي نجت من دمار سنوات الحرب الماضية توجد فيها شرفات صغيرة، مستطيلة في الغالب، تزينها نباتات تحب الشمس قليلاً، وتتدلى بحذر خارج الحديد الذي يعلوه قليل من الصدأ. لكن الجدران أصيبت بالبكم وفقدت حاسة اللمس، لكنها تتنفس، تبوح بحكايا قديمة تسبق عمري بأعوام كثيرة، تحكي عن ذاكرة عتيقة للأماكن المدللة.

لكن الحي الذي أسكن فيه ليس مكاناً مدللاً أبداً، إنه مكان مزدحم جداً، أبنيته متلاصقة، وشوارعه مكتظة بالمحلات والباعة المتجولين، ليس فيه أرصفة للمارة. وفي أيام الشتاء، حين تغضب السماء، وتزمجر كثيراً، يستيقظ الناس على طرقات مغمورة بمياه المطر الممزوجة بالوحل، وبرك صغيرة تتحول لمستنقعات تعبر منها السيارات من دون مبالاة، وترش ثياب العابرين بالمطر الموحل.

الناس في منطقتي يحبون "الله" كثيراً، يعتقدون أنه معهم دائماً، لذا هناك مساحة من الأطياف الغيبية والمنامات تحضر دائماً في حياتهم. في أيام مراهقتي، كنت أذهب كثيراً إلى الجامع، أحضر دروس الدين التي تعقدها الحاجة منى، كنت أصغر الحاضرات، كان عمري 14 سنة، وكانت الحاجة منى تأمل أن أكون مكانها في يوم ما، لأني كنت سريعة الحفظ والترديد للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لكني لم أملك أبداً قدرة جيدة على الكلام، كانت تنقصني الفصاحة. انتهى كل هذا رويداً رويداً، وحين صرت في العشرين من عمري، لم أعد أتردد على الجامع. لو عدت الآن لتذكّر تلك المرحلة أحس أنها ضبابية جداً، لا يبدو لي شيء واضح تماماً، سوى موت أبي، ثم بحثي عن الله في الجامع، ثم إحساسي أني لم أعرف الطريق إليه بعد. لذا ما زلت أبحث عنه، في قلبي، في ظل رجل عجوز ينحني ليلتقط الخبز عن الأرض، في هدوء البحر، وهدير شجرة الصفصاف التي شاخت منذ أعوام.

* * *

حصى صغيرة على شاطئ البحر. تدوس قدما مارغريت حصى الشاطئ في حركة تحاول عبرها تثبيت قدميها كي تترك الحصوات آثارها على جلدها الجاف، تود أن تحس أنها يقظة حتى الحد الذي تؤلمها فيه الحصى الصغيرة. شالها الأزرق يطير مع موج البحر، ويان أندريا يسير برفقتها بخفة مع اندهاش طفولي في لمعان عينيه. كانت تحكي له قصة تكتبها عن الطيار الإ ٌبليزي الشاب الذي لم يبلغ العشرين ربيعاً، الذي مات في اليوم الأخير من الحرب العالمية الثانية، حين كان يلعب بطائرته ويطوف حول قاعدة للألمان، كان طفلاً يلهو أكثر من كونه

طياراً حربياً. حين سقطت طائرته في الغابة، ظل هناك يومين قبل أن ينجح أهالي القرية في إخراجه من الطائرة، جسداً مدمى، ميتاً، مجهولاً تماماً.

قالت: "هل من سبب غير الحرب يجعل شاباً في العشرين يظل ميتاً حبيس طائرة معلّقة أعلى الشجرة، يموت في غير بلده، في مكان لا يعرفه فيه أحد؟ لماذا اندفع نحو الموت بكل هذه القوة! الموت الذي حضر بخفة ورافقه في طواف نهائي!".

توقفت عن الكلام قليلا، ثم حدقت في عيني يان أندريا قائلة: "هناك من يحبون الحرب، أليس كذلك يان؟".

مضى السؤال من دون إجابة كما لو أنه تناثر مع زبد الموج.

كانت مارغريت تسرد قصة الطيار الإ ٌ بليزي، بجمل متقطعة، كما لو أنها تكتب. ظل يان صامتاً، هو يخاف أحياناً من حدتها، من ردة فعل غير متوقعة قد تقوم بها في لحظة ما، لو قال جملة لا تروق لها. أمسك بيدها ودفعها للركض على الشاطئ، صار الحصى خفيفاً تحت قدميها العاريتين. غمر مارغريت شعور فضّي من نشوة البحر، من شعاع الشمس المسائي، وتراجع إحساس الثقل العالق بها في معظم الأوقات. أحست أنها تود أن تركض مع يان أندريا، أن تظل معه، أن يبقيا معاً في زمن أبدي مفتوح، ينهي صراعها مع الإله المجهول، مع الوحدة، الوقت، العزلة التي تتوق إليها وتهرب منها، ثم كيف تريد العزلة وها هي الآن هنا مع يان أندريا، يمشيان معاً على الشاطئ، ويستمعان لأزيز الكون؟

كذب، لا توجد عزلة مع الآخر، وجود الآخر ينأى بفكرة العزلة بعيداً، وفي حال تقبلنا حلول هذا الآخر في حياتنا فهذا يعني أننا تنازلنا

عن تلك العزلة المزعومة.

كان فيها توق للكتابة، حكاية الطيار الشاب تناديها، لكنها تترك الكلمات جانباً الآن وهي تركض باندفاع على شاطئ البحر المتعرج، تشد على يد يان أندريا الذي ضمها إليه بقوة وهو يداعب عنقها وأعلى ظهرها.

* * *

يوم آخر من أيام الحرب، لا شيء غير الترقب، والانتظار.

عادت موسيقى عزف البيانو، تتسلل إلى سمعها في آخر الليل، حتى ساعات الفجر الأولى، كادت زينب تيقن أن ثمة عازفاً مجهولاً، يمارس تمارينه على العزف بعد الثانية ليلاً. لم يذكر أحد من أفراد عائلتها شيئاً عن الموسيقى الليلية، كما أنها لم تسأل أياً منهم، لأن زينب ينتابها الشك في حواسها في كثير من الأحيان، بخاصة مع امتزاج أصوات الحرب، بكل آلامها وأنينها، مع أصوات أخرى تأتي من أماكن شتى. لذا لم تعد قادرة على التمييز، تحس أنها تطفو بين عالمين، أحدهما تنسحب نحوه بلذة، والآخر يأخذها إليه عنوة، بكل ثقله وجبروته. كانت تبيت أحياناً في الغرفة المهجورة، لكنها لم تسمع أياً من تلك التمتمات، أو البكاء الذي حُكي عنه، في "غرفة البنت القتيلة"، كانت تغفو بعمق، أحياناً يقطع غفوتها صوت العزف القريب، لكنها كانت تحلم كثيراً، أحلام فيها وجوه عرفتها، ووجوه لم تعرفها. لكن الحلم الوحيد الذي سبب لها الفزع، حين شاهدت نفسها في سجن كبير، مع نساء وفتيات كثيرات، حاولت الكلام، إلا أن صوتها كان مخنوقاً، ذاك الحلم، أو الكابوس، سبب لها

هلعاً أكثر من أصوات القذائف. ولم تجد له أي تفسير سوى أنها مسجونة فعلاً، في سجن الحرب.

الحرب التي تزامنت عندها بزحف جارف للموت. مات أبوها بالسرطان خلال الحرب الأهلية. ثم مات عمها الوحيد في قذيفة سقطت على المبنى الذي يسكن فيه، وبعد عامين ماتت جدتها حزناً عليهما. وبعد موت تلك الجدة الطيبة انقطعت الصلة بعائلة أبيها.

تلح عليها رغبة الاتصال بمازن، أين هو الآن؟

وهل من الممكن الذهاب لموعد حب في زمن الحرب؟

هاتفه مغلق. الصوت الآلي الذي يبلغ تعذر الاتصال به يدفع داخلها إحساساً بالغثيان.

تفكر زينب أن "مازن" ربما يكون أكثر رجل أحبها، وتقبّلها كما هي من دون أن يحاول تشكيل نسخة معدلة منها، كما فعل الجميع.

سترى في وقت ما أن قصتها مع مازن لها أكثر من باب، لكن كل تلك الأبواب الكثيرة تؤدي إلى نقطة واحدة تتقاطع فيها كل الخطوط.

التقت "مازن" في الجامعة، يصغرها بعامين ونصف، كانت قد انتهت من دراسة الرياضيات، وتمارس التعليم كما خططت لها والدتها. لكنها بعد جلسات العلاج النفسي قررت العودة للدراسة، اختارت دراسة الأدب الفرنسي، هكذا تعرفت على روايات مارغريت دوراس، لكنها لم تعرف حكايتها مع يان أندريا إلا عن طريق مازن. أعطاها نسخة من فيلم "هذا هو الحب"، وأخبرها أنه مأخوذ من كتاب يحمل الاسم نفسه، كتبه

يان أندريا عن قصته مع مارغريت دوراس.

في ما بعد عرفت زينب أن هذه النقطة المهمة لحكاية مازن، ليست هي البداية لقصتها هي معه، ربما بدأت حكايتهما بعد عام من الصداقة، بعد ذاك العناق الذي حصل في بيته، حين كانا متقاربين، وكانت تهذي من البكاء بسبب قصة وله بائس. في تلك اللحظة التي احتضنها فيها مازن، ربما لم يفكر أيٌّ منهما كيف ستكون علاقتهما في ما بعد، كما لم يفكرا بالصداقة التي من الممكن أن تتبخر فيخسرا الحالتين: الصداقة والحب.

هي لا تذكر تماماً ما حدث، التفاصيل تبدو ضبابية في ذهنها. ضبابية تماماً. لكنها ستعرف مع الوقت أن "مازن" كان حقيقياً. حقيقياً جداً. ربما أكثر منها بكثير. كل ما تذكره بوضوح الآن هو السكون الذي غمرها بشعاع أبيض.

ساعدها مازن على معرفة ذاتها أكثر.

ثمة شيء ما بينهما كان مختلفاً تماماً، يشبه العزف، التحليق، العوم. منذ تلك اللحظة التي تلاصقا فيها على الكنبة، حين شدها إليه وصارت ملاصقة لجسده، وبعد أن طوقها بذراعه اليمنى وربت على ذراعها تربيتات متتالية، أحست بهدوء، بسكينة، وأمان، نوع من المشاعر لم تعرفه من قبل، دفعت إلى قلبها غبطة شديدة. تورد جلدها مثل رغيف خبز خرج توا من الفرن، وكما لو أن الذبول، والحيرة، والخوف، جلد مهترئ تقشر عن طبقاتها السطحية، وظهر لها جلد جديد، نضر،

ومشدود.

كانا يسمعان موسيقى "تشايكوفسكي" وهما في السرير، يلامس جسدها بحنو هائل. كانت ذرات الهواء تتشبع بالحنان، تحس أن كل ما في الغرفة يبتسم، الباب، الشباك، الطاولة، المزهرية، السجادة الصغيرة، منفضة السجائر، علبة الأقلام، جهاز الكمبيوتر، ملاءات السرير، كل شيء يتناغم مع خط القبلات الصغير الذي يبدأ من سرتها ويرتفع حتى خط الزغب الأسمر بين نهديها. كانت تصفه بأنه "نبي الحنان"، وأنه من الممكن أن يبشر بتعاليم جديدة عن أسطورة "الحنان" في لأم جراح البشر.

في حلم هذه الليلة، رأت نفسها تدخل من باب إلى باب، رأت أبواباً كثيرة في كل الاتجاهات، أبواباً مشرعة. كان مازن يقف متكئاً على أحد تلك الأبواب، يرتدي قميصاً أبيض، وبنطالاً من الجينز، شعره كما يكون عادة مجعداً طويلاً حتى رقبته، يشبه لبدة خروف، وفي الحلم أمسكته من شعره بكلتا يديها وحاولت جذبه نحوها، لكنها ظلت تعارك الفراغ.

* * *

يان أندريا..

ربما يوجد في الحب العظيم كَمٌّ من الجنون، من العبث، يفوق أحياناً قدرتنا على الاحتمال.

ربما الحب العظيم حالة جنون ليس إلا .

أنت ربما عرفت هذا النوع من الحب، لا يمكنني الجزم بذلك، ثمة أسئلة في ذهني تدفعني للتخيل أن كل شيء كان وهماً.

ماذا لو كانت كتابتي لك مجرد وهم!

ماذا لو كانت قصتك مع مارغريت تخبئ أسباباً أخرى غير الحب!

إن كل الحقائق تحمل ظلالاً، لا يمكننا إنكارها، لأنها موجودة وتكبر، ولا تنتهي إلا بعد أن تنفجر مثل دمل يخرج معه كل الدم الملوث.

لكن أنا على أي حال لم أعرف حباً عظيماً ومستمراً، كما عرفتَ أنت. وحين سأحكي لك حكاياتي القصيرة، ربما ستدرك السبب الذي يدفعني للدخول إلى زمنك.

في المرة التي تكلمنا فيها قلت لي إنك لن تكمل كتابك، وستنسى مارغريت. كنت تكذب علي، كلانا كان يعرف أنك تكذب، وكلانا أيضاً كان يحب مارغريت. فكيف أقنعك بنسيانها؟

مارغريت كانت شابة، فاتنة وقوية، قبل أن تولد أنت، وفي الوقت الذي كنت تلهو فيه مع رفاقك الصغار كانت هي تكتب أعظم رواياتها.

مثلها أعيش في ألم بسبب أم قاسية، وأخ متسلط، هل أدركت ذلك؟ وكما فعلت أنت وكتبت لها رسائل كثيرة، ها أنا أكتب لك.

أكتب وأنا في قلب الدائرة، في داخل مساحة بيضاء ساكنة، أطفو على البياض بين السكون.

في باطن يدي اليسرى أحمل الكرة الأرضية، أرى الكنغارو يركض

في براري أستراليا،

وألمح أهل الضباب يدخنون التبغ عند حافة الكون.

في باطن يدك اليمنى أرى البحر... لا شيء غير البحر.. وأنا... التي أتجدد مع كل موجة.

سكون... سكون.. سكون يُغرق العالم، داخلي بياض شاسع. أنسلّ بعيداً، لأن الصداع النصفي يلازمني. بيننا صداقة قديمة منذ كنت أرتدي زي المدرسة، وأضم شعري في ضفيرة تختبئ تحت حجابي الأبيض. الغيوم لا تحجب الرؤية في كفي، ثمة مغنٍّ أسود يغني الجاز، رواية آمي تان● "نادي الحظ والبهجة" سقطت من رف المكتبة بفعل فاعل. وجوه النساء الصينيات بدت مائلة وحزينة، فنجان قهوة بالحليب، كأس بيرة ذهبية، لي ولك. سنابل قمح خضراء وسط مزهرية من الفخار الملون بالأخضر، الكراسي الخشبية حول الطاولة خالية دوماً، لا تنتظر أحداً، هناك شمعتان إحداهما ذابت قبل الأخرى، بجانب تمثال بوذا، ومجسم خشبي لفيل صغير، هناك أيضاً وعد مضمر أن تأتي لزيارتي هذا المساء.

مارغريت ما تزال تأتي إلي قبل الفجر بساعتين، غاضبة أحياناً، ومبتهجة في أحيان أخرى، تطلب مني ألا أتركك وحيداً، وأن أكتب لك كل يوم عن البحر الذي أحبته.

ولدت الكاتبة الصينية آمي تان عام **1952**، في أوكلاند– كاليفورنيا، تم تحويل روايتها " نادي الحظ والبهجة" إلى فيلم سينمائي عام **1994**، والرواية تتناول سيرة لمجموعة من النساء الصينيات، وفكرة الهوية، والعلاقة مع الوطن. ●

* * *

عند كورنيش الشاطئ، كانت مارغريت تجلس على حافة مقعد حجري، الوقت مساء، والهواء يميل إلى البرودة مع نهاية الخريف. البحر هائج، تماماً كما تحبه، ترى في حركته تلك، أفكارها الصاخبة. كانت وحيدة.

لا يميل الناس للبحر حين يكشف عن وجهه الحقيقي. الناس يحلمون ببحر هادئ دوماً، لكنها لمحت شاباً يافعاً على بعد خطوات منها، لم يكن يراها، كان منشغلاً، ينظر باتجاه نافذة في الجهة المقابلة، تقف فتاة جميلة وشابة في وسط النافذة وتلوح له وهي تشير إلى أسفل، فيما عينا الشاب في حيرة، تجولان المكان بسرعة بين نافذة الفتاة والشارع، بعد قليل ظهرت فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها تقريباً، ناولت الشاب ورقة، ومضت مسرعة.. ظل الشاب واقفاً يقرأ الرسالة، وبين حين وآخر يرفع نظره نحو النافذة، حيث صاحبتها ما تزال واقفة تنظر نحوه. وضع الشاب الرسالة في جيبه، ومضى مبتعداً.

هل حددت له مكاناً ليلتقيا به؟ هل أبلغته بتخليها عنه؟ ماذا تحتوي تلك الورقة؟

فكرت مارغريت باحتمالات شتى، فيما تختلط الصور في ذهنها، عن حكايات أخرى، عرفتها، وعاشتها، وتبرق في ذاكرتها مثل علامات حمراء لا يمكن المرور بجانبها من دون توقف.

تذكر حين كانت صبية، وسارت بسرعة في شوارع كامبوديا، الوقت أول المساء. الطرقات غارقة بماء المطر على شكل برك صغيرة امتزج عند حوافها الماء بالتراب. غرقت قدماها بالوحل، وتبللت ثيابها، أحست أن مياه المطر تسللت إلى عظامها عبرحذائها الضعيف وتنورتها

التي لا تغطي ساقيها بالكامل. قررت التوقف عند بيت صديقتها تارا، لتختبئ من المطر. تعبر بقع الوحول بسرعة، تحاول التحرك بخفة خشية أن تنـزلق على الأرض فيزداد حالها سوءاً. حين فتحت لها تارا الباب كانت تمسك بيدها ملعقة خشبية كبيرة عليها آثار من اللون الأبيض اللزج لطعام تعده. تجمع إخوة تارا الخمسة على حصيرة قديمة على الأرض، كانوا يكتبون واجباتهم الدراسية أمام قنديل الكاز، الغرفة معتمة، لكنها عابقة بالدفء. جلست مارغريت على الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة، ناولتها تارا منشفة قديمة لتنشف وجهها وشعرها وثيابها مما علق بها من مياه المطر، ثم سحبتها من يدها لتقف إلى جوارها في المطبخ. كانت تارا تطهو حلوى الأرز بالحليب في قدر كبير، واصلت تحريك الأرز الذي يتصاعد منه البخار، حركت شفتيها جانباً دلالة على انزعاجها من التصاق الأرز في الوعاء، طلبت من مارغريت الجلوس على إحدى علب الحليب الفارغة الموضوعة على الأرض، ثم واصلت التحريك وهي تسألها عما حدث في لقائها مع العاشق. كانت عينا تارا تلمعان من الإثارة والشوق لمعرفة ما حصل مع صديقتها اليوم، لكن مارغيت كانت تنظر إلى وجه صديقتها الأسمر، وإلى البخار الذي يتعالى من القدْر، ليلامس وجنتيها البارزتين، وأنفها الأفطس، فيبدو لمعان شفاف على بشرتها السمراء. كانت خصلات سوداء من شعر تارا الخشن منفوشة إلى أعلى خارج المشابك المثبتة حول رأسها. لم تقْوَ مارغريت على الكلام، كانت سابحة في تخيلاتها الخاصة، ظلت تراقب صديقتها وهي تسكب الأرز بالحليب في أوعية صغيرة صنعتها من أوراق جوز الهند، كانت مارغريت تندهش كيف تقوم تارا بصنع مربع من ورق شجر جوز الهند السميك على شكل طبق، تقوم بشبكه بإتقان، فيتحول إلى صحن يتم وضع الطعام فيه من دون أن يتسرب منه شيء،

صفت تارا أطباق الحلوى على الطاولة المستطيلة المغطاة بمشمع قديم وممزق، بانتظار أن تبرد قليلاً قبل أن يلتهمها الصغار. كانت مارغريت تنظر إلى الأوعية الخضراء المملوءة باللون الأبيض وتتخيل التفاعل اللطيف الذي سيحصل بين أوراق جوز الهند والأرز الساخن بالحليب، فكرت أن نقص أوعية الطعام دفع صديقتها إلى ابتكار هذه الطريقة للتحايل على الفقر. كانت تفكر في حياة صديقتها المعدمة، بينما تارا تتشوق للانتهاء من غسل الوعاء الكبير الذي طهت به الحلوى كي تجلس مع صديقتها الوحيدة للاستماع إلى مغامرتها، وما حدث في لقاء اليوم.

عندما جلست تارا قرب مارغريت في زاوية المطبخ المعتم، كانت تستمع لحكايا صديقتها عن العاشق الذي يغسل لها جسدها في حوض الاستحمام، ثم يحملها إلى السرير وهو يلفها بمنشفة شبه رمادية كانت بيضاء في وقت مضى، يداعب أصابع قدميها الصغيرة وهو يحاول سؤالها إن كانت تعرف أحداً غيره. كان العاشق يغار، يغار عليها كثيراً، ولا يخفي غيرته، وشكّه.

تذكره بحب وتبتسم، وهي تلمح الشاب المراهق يمضي بعيداً.

حين عادت مارغريت إلى البيت، كان يان أندريا في الحديقة، يلم الأوراق الصفراء المتساقطة من شجرة البتولا على الكراسي الخشبية الصغيرة. مارغريت فرحة وهي تحكي له كيف كانت شاهدة على رسالة حب بين فتاة يافعة، وشاب ينتظر قرب نافذتها. ابتسم يان لها وهو يقول: "وهما لم يظنا أن هناك من يراقبهما".

ضحكت مارغريت وقالت: "لا، هما غير مشغولين بالعالم، لأنهما في عالمهما فقط".

لم تخْكِ مارغريت عن الصور التي طفت في ذهنها لما شاهدت الحبيبين، أبعدت عن كرسيها زهرة بتولا حمراء طويلة وملتفة، وجلست قرب يان وهي تقول له: "هل تعرف أن أزهار البتولا الحمراء ذكورية، بينما الأزهار الخضراء أنثوية، انظر إلى الأزهار الخضراء كيف هي صغيرة لكنها ناضجة".

* * *

حين رن هاتفها، توقعت أن يكون مازن، لكن فاجأها صوت د. عبدالله، غاصّاً، فيه ندوب وحزن موجع. حكى لها عن موت أخيه الأصغر، قال لها إنه استشهد في الحرب وهو لم يتم العشرين بعد. تفجرت حمم بركانية في صوته وهو يقول لها: "أخذ روحي معه... لم يعد لي روح، كان ابني". في اللحظة التي كان يحكي فيها عن فجيعته، قالت له إنها ستأتي إليه في الحال، أحست بواجب أن تكون قربه.

البيت الصغير الذي يسكنه، بدا لزينب جزءاً من حالة العبث التي تعيشها المدينة كلها. غرفة صالون صغيرة مشعثة، وضع فيها أغراضه التي نجت من دمار شقته المحترقة في الضاحية الجنوبية.

لم يكن في حاجة للدموع كي يعبّر عن فجيعته، رأته كما لو أنه أُصيب بالهرم في أسبوع واحد. أمسك يديها وهو يحكي معها، ثم وضع رأسه عند حضنها. ما إن مست أجفانه حتى أجهش بالبكاء في صوت مسموع، غمرها حس أمومي نحوه، وكما لو أن كل القسوة التي عزلته عنها، تمثالاً تحطم فجأة. كانت صورهما تنعكس في مرآة ملصقة على الحائط. وفي المرآة، رأت زينب ابتسامة مهجورة قديمة، رأت عواصف

تلملم دمارها وتمضي. تمسد شعره، وتتمتم كلمات غير مفهومة. لكنها بكت حين قال لها: "تسلمت أغراضه، ثيابه، ساعته، وهدية صغيرة من حبيبته احتفظ بها معلّقة في سلسلة حول عنقه. أتدرين ماذا أيضاً... بقايا طفولته ملفوفة في شال والدتنا الأسود".

مضت وتركته غافياً على المقعد. كان الوقت أول المساء، وهي تحس بالدوار، دوار الحرب اللانهائي، لكنها لم تكن خائفة. كانت تفكر بالموت، الذي يأتي بخفة، ويمضي بخفة، آخذاً معه طفلاً – مقاتلاً– يحتفظ بين أغراضه بأثر من رائحة أمه.

لما دخلت زينب إلى مدخل العمارة، وقبل أن تصعد الدرج، شاهدت أخاها وسام يقف مع امرأة تكبره بما لا يقل عن عشر سنوات، كان هناك حوار يدور بينهما؛ لكن الكلام توقف تماماً لحظة مرور زينب، التي ألقت التحية وتابعت طريقها إلى أعلى. حين دخلت إلى البيت كان سامر يحكي مع صديقه على الهاتف عن قراره الذهاب إلى الضاحية الجنوبية في أقرب وقت، أمها نائمة أو قابعة في غرفتها، لأن الكهرباء مقطوعة. جلست زينب في الصالون، لمحت وجه سامر الأبيض تنعكس عليه ظلال الشمعة المضاءة في الشمعدان، بدا لها طفلاً أيضاً، رغم تظاهره بالكبر. سامر يصغرها بعشر سنوات، لكنه يبدو أصغر من عمره الحقيقي، لذا تحسّ زينب نحوه بأمومة دائمة. كانت قادرة على استيعابه في أي موقف. تفهمت دوافعه حين أعلن فشله في الدراسة الجامعية، ورغبته دراسة الموسيقى، لم تنفع كل احتجاجات الأم في ايقافه، وحين شكّلَ مع أصدقائه فريقاً لعزف موسيقى "الروك"، قوبل بغضب عائلي من الأقارب

جميعاً، ونظروا إليه على أنه مجرد شاب فاشل. لم يشارك وسام في تلك الأحداث، ظل معزولاً كما هو دائماً، وظلت الأم تلعن حظها العاثر أمام من تثق بهم من الأقارب والجيران.

كان وسام يعتقد دائماً أنه يستحق حياة أفضل، لكنها حياة طفيلية تستند إلى ما يقدمه الآخرون له، وهو لا يجد في هذا أي خطأ. تقلب في أفكاره كثيراً. في زمن ما أعلن أنه شيوعي، وأن الشيوعية لا بد أن تسود لأنها الحل الأمثل لتسير حياة البشر، لكن الشيوعية بالنسبة إليه تعني ألا يستحم، ألا يعمل، أن يطيل شعر رأسه، وأن يعيش حياة خالية من أي التزامات، ويتكل على أمه وأخته في تسير أمور البيت. ثم يردد شعارات رنانة عن المشاركة وعمل المرأة، تلك الشعارات جاهزة ليستعين بها حين يتعرض لأي لوم، أو انتقاد بسبب تقصيره. حينها يتحدث ويعرض أفكاره بأسلوب متسلسل، متوافق مع حركة يديه وتعابير وجهه الرزينة، يبدو كأحد الحكماء والواعظين المهمومين بمصير الكون، يتمكن وسام من خداع الآخرين بسهولة، يُشعرهم أن الكون بسيط، وأن البرجوازية المتعفنة وفق تعبيره هي التي أفسدته، لذا يجب أن نكافح ضدها. لكنه كان يتواطأ مع الأم حين تحكي عن أصولها البرجوازية، ويوافقها ضمناً على نظرتها لأبيه بأنه سبب انحدارهم العائلي، بدايةً بسبب ميوله السياسية، وعمله صحافياً في جريدة يسارية، ثم موته المبكر، واكتشافهم أنه لا يملك أي شيء، وأن قطعة الأرض الصغيرة في ضيعته التي من المفترض أن تكون باسمه هي ضمن الأرض التي تملكها الأسرة ويزرعون فيها التبغ، ليبيعوه ويعيشوا من مردود محصوله. وسام كان مثل الأم أيضاً

ينظر لعائلة أبيه بدونية لا يجاهد في إخفائها، إن حدث والتقى بهم صدفة. إنه كتلة من التناقض الأصم، لذا من الممكن أن يقوم بأي احتجاج عنيف لو حاول أحد الأعتراض على سلوكه، فهو الابن المدلل عند الأم.

* * *

يان..

أنت كتبتَ لها رسائل طويلة، جعلتها تفتح لك الباب. أين هي تلك الرسائل؟ ماذا كتبت بها؟

سأكتب لك لأحافظ على ذاكرتي من الفقد، من الدمار، من الخيبة. في كل ليلة أحاول النجاة بجزء قليل من ذاكرتي.

هل أُخذت منك ذاكرتك؟

هل تم تدميرها في يوم ما؟

منذ جاءت الحرب، منذ غادرنا بيتنا، منذ مات أبو علي الفران تحت أنقاض الفرن وأخذ معه رائحة المناقيش، ضاعت ذاكرتي، لذا ينبغي أن أكتب لك، كي لا يغيب زمني، كي لا يتلاشى تماماً، ولا يبقى منه سوى خيط ضباب، لن يلبث أن يتبدد تماماً.

وفي هذا الزمن، الذي نسوك فيه، ولا يذكرون عنك سوى أنك كنت الحبيب الأخير لمارغريت، أواصل ربط ذاكرتي بذاكرتك، وأكتب لك.

عطر "كوكو شانيل" الذي لا تحبه أنت، تركته أيضاً في بيتنا.

في ليلة ما كانت الخطوط الذهبية بارزة في عباءتي البيضاء، كنا نحتفل بعيد ميلاد أخي "سامر". قلت لك إني أرتدي عباءة بيضاء، وأرش عطر "كوكو شانيل"، ورددت بأنك لم تحب هذا العطر لأنه يذكرك بحزن صاحبته ويتمها، وأن هذه الرائحة بالغة الترف تنقل إليك برودة الميتم الذي عاشت فيه "كوكو•".

كنت أسمعك دائماً.

وأسمع تأوهاتك المسائية. أنت أيضاً كنت تسمعني حين أحكي لك عن إعجابي بالمراسل الحربي الأصلع. تضحك لأنك لا تراه وسيماً. ثم تنصحني أن أكتب له عن مشاعري لعلها تُفرحه.

ماذا أفعل الآن بكل نصوصي التي كتبتها قبل الحرب؟

أبطالي لا أعرف ماذا حَلَّ بهم؟ هل هم من النازحين، أم ماتوا تحت القذائف، أم ما زالوا تحت الأنقاض؟

مضى أسبوعان وأنا أنتظر عودتهم. أقرأ روايات مارغريت دوراس، وأكتشف تفاصيل صغيرة في قدرتها على كتابة الحياة، كتابة الحرب والحب أيضاً.

كوكو شانيل : مصممة أزياء فرنسية، وتعد من ضمن أبرز شخصيات القرن العشرين،ومن أحد أسباب شهرتها عطر شانيل، الذي وصفته بالقول " أريد أن أمنح النساء عطرا مصنوعا مثل الفساتين. وصار هذا العطر المركب من أشهر العطور العالمية. والجدير ذكره أن كوكو شانيل عاشت في الميتم، وعملت في الحياكة، قبل أن تحصل على هذه الشهرة. •

أنا أيضاً أريد الكتابة لك وعنك. لمثل حكايتك وحكايات الحرب تكون الروايات.

لا تَخَفْ، صوت القذائف لن يعلو على همسك لي، وندبة الحرب التي محت ما قبلها من ذكريات، لن تمحو معرفتي القليلة بك. منذ ذاك الصباح حين تركت على كتفي ذرات الماء البارد، واقتربت أنت لتلامسها بأصابعك، مررت بسبابتك على عنقي، قَبلتني عند أعلى الكتف وخلف أذني ومضيت.

يان.. استمع الآن إلى موسيقى "باخ". أحب "باخ". إنه يثير الفرح في قلبي، وتذكرني موسيقاه ببنات صغيرات يضحكن بنشوة تحت المطر.

سأنتظرك هذا المساء.

* * *

حكاية العاشق، ليالي كمبوديا، والأرز بالحليب الذي تطهوه تارا، قصص لم تنته منها مارغريت بعد.

هناك أيضاً حكاية المرأة العجوز والطفلة التي كانت كذبة في بدايتها. لكن كل تلك التفاصيل ها هي تعاود الظهور بقوة ضمن فوضى ذاكرتها.

في العتمة، تذكر مارغريت حين تسللت إلى السينما، كانت في الخامسة عشرة من عمرها، لا تملك ثمن بطاقة الدخول، أرادت الجلوس في الظلام، حيث لا يراها أحد، في الصفوف الخلفية التي يتجمع فيها كل من أراد التواري عن الأنظار. أربعة شبان عابثين تبادلوا الهمس عن البنت البيضاء الصغيرة، التي تدخل السينما وحدها. تعرف ما يقولونه. غمر

كيانها كله خجل لا ينتهي. صارت كتلة من الخجل تسير على قدمين، لكنها تناست كل هذا في أضواء الشاشة التي تنعكس على الظلمة، فيبدو الحاضرون ظلالاً، وتتحول القاعة إلى مكان ساحر. انقباض شديد أمسك قلبها حين تذكّرت أن أخاها وأمها سينهالان عليها بالصفعات، لأنها تأخرت. سيظنان أنها ذهبت للقاء العاشق، وهذا السبب بحد ذاته ، من وجهة نظر أخيها الأكبر، كافٍ لأن تتلقى لكمة على وجهها.

حين خرجت من السينما، أمطرت السماء زخات خفيفة هذه المرة، سارت في شوارع كمبوديا الضيقة والمعتمة، كانت تتباطأ في العودة للبيت، هي لا تريد العودة، رغم أن عليها الوصول في أسرع وقت، لكنها تكره البيت. تعود لذاكرتها، الغرفة الضيقة التي تلتقي بها مع العشيق. لم يكن يكبرها بأعوام كثيرة، لكنه كان ثرياً. في بيتها حيث أمها وأخويها لم يكن الطعام يكفي للجميع، ولم تكن هناك ثياب تليق بها حين تذهب للقائه. هو لم يأت للقائها اليوم، لذا عليها الذهاب للسينما. أي كذبة ستؤلفها كي تتجنب الصفعات بسبب تأخرها؟

كذبت عليهما، على أمها وأخيها الأكبر. ابتدعت قصة المرأة العجوز التي ترافقها طفلة صغيرة، فقد سقطت المرأة العجوز في بركة الوحل ولم تتمكن الطفلة من مساعدتها على الوقوف، تقدمت منهما مارغريت وسندت المرأة التي بدت في غاية الضعف والمرض، رافقتهما إلى المنـزل، ثم عادت بسرعة إلى البيت، أقسمت لهما أن هذا ما حصل فقط، لكنهما لم يصدّقاها، انهالت عليها الأم بالصفعات والشتائم، والأخ وقف يتابع المشهد مستلذاً بصراخ أخته. هي كانت تعرف أن هذا ما سيحدث، لكنها تصر على عدم الرضوخ لرؤى أمها في التعامل مع الحياة. تحس

بالمتعة حين تذهب للسينما، وحين تلتقي بهذا العاشق السري، لا تتمكن من نسيان لمساته على جسدها الصغير، أحبت مداعباته كثيراً، كما أحبت احتضانه لها، هذا الوله والرجاء بأن تبقى معه، كلها تفاصيل كانت تزيد من شغفها به.

الآن تدرك أن الشغف، يأتي من منطقة غير آمنة أبداً، الأمان لا يمكن أن يلتقي مع شغف مجنون، عرفت بعد كل هذا الوقت، أن شغفها بذاك العاشق كان في جزء كبير منه وليدَ لذة الاستمتاع بالخطر، والنجاة في كل مرة، ثم المعاودة من جديد.

* * *

منذ بلغت أمها الستين خَفّتْ حدتها قليلاً، صارت أكثر تركيزاً على ذاتها وأمراضها التي لا تجهر بها. صارت الأم تنظر إلى زينب نظرة غريبة، إنها النظرة نحو الشيء الميؤوس منه، والمأسوف عليه، فقد يئست أمها من الحصول على الابنة التي حلمت بها. وتقبلت أخيراً أن يكون عندها فرخ بطة قبيحة بدلاً من بجعة فاتنة. تدرك زينب أن أمها تمنت لو كانت مثل بنات خالها مايا، ونورما، وسيرين. تمنت الأم طويلاً أن تشاركهن زينب الاهتمامات بأدوات التجميل، الثياب، وآخر صيحات الموضة، وأن يكون لها الذوق الرفيع الذي تمتاز به بنات أخيها. زينب كانت بعيدة جداً عن فتيات عائلة أمها، وتنازلت لهن بسهولة عن المكانة التي يشغلنها في عاطفة الأم واهتمامها. لكنها كانت بعيدة أيضاً عن فتيات عائلة أبيها، اللواتي يعشن في الجنوب ولا تجتمع بهن إلا مرة في العام، وتجد نفسها بعيدة عن اهتمامهن بالأرض، والمونة، وموسم قطف التبغ، والحصول على زوج مناسب، وتمنياتهن ألا يكون من شبان الضيعة، بل من المدينة

كي يرافقنه ويتخلصن من كل هذا التعب. لكن على الرغم من ذلك تكون على سجيتها حين تكون معهن، ولا تضطر إلى افتعال أحاسيس زائفة، وتبادل ابتسامات بلهاء.

حين كانت جدتها ما تزال حية، كانت زينب تُمضي عندها أياماً عدة ثم تعود إلى بيروت، تنام في الفراش نفسه مع الجدة التي تحتضنها ليلاً وتمسح على شعرها وهي تقول لها إنها تذكّرها بأبيها الذي غاب باكراً. منذ موت والد زينب فقدت جدتها حيويتها ونشاطها الدؤوب، جزء كبير منها لم يعد يبالي بالحياة، إلا حين كانت زينب تزورها، تدب فيها الحيوية، ويعود إليها النشاط، فتستيقظ باكراً لتعدّ لحفيدتها الشاي بالحليب، وتجهز طعام الفطور من البيض البلدي، واللبنة، والجبنة التي صنعتها بنفسها، والزعتر، وزيت الزيتون.

كان ذهابها إلى الجنوب لزيارة عائلة أبيها موضع انتقاد وسخرية من الأم، بخاصة حين اكتشفت علاقتها مع حامد ابن عمتها.

* * *

يان..

"في أغلب الأحيان أشعر بالفراغ، بفراغي الذاتي، وكأنني من دون هوية، البدايات تُشعرني بالخوف، إلا أن السعادة تأتي مع الوقت، تتوقف ثانية كأنها الموت".

هكذا قالت مارغريت دوراس.

كانت تملي عليك كلماتها، وكنت تكتب.

لماذا أحببتها كل هذا الحب؟ عشت معها ستة عشر عاماً، ورافقتها في رحلتها حتى النهاية.

في عام 1981 صرتما عاشقين. وبقيتما معاً حتى ودعتك صباح الثالث من شهر مارس عام 1996، الآن بعد أعوام على غيابها، ما زلت تحكي عنها.

يان... المقرب، البعيد بإصرار،

أين أنت الآن؟

سأجعل كلماتي ريشة من جناح سنونو تحط على نافذتك بغصن طري وترحل. لو لامست الغصن ستجده مبللاً بماء ندي.

يان..

لِمَ كتبت مارغريت لك هذه الكلمات؟

"سأحبك حتى موتي..

سأحاول ألا أموت

قبل الأوان..

وهذا ما عليّ فعله"..

ها أنا أقترب من عامي الثلاثين، وأدرك أني لم أحصل على الحب الذي كنتُ أرجوه، ولم تتقاطع أحاسيسي بشكل تام مع أي أحد، لذا فتنتني قصة حبك لمارغريت، وزمن استمرارها.

صوتك الغائب ما زلت أحلم به، وما زلت أنتظر جملك المقتضبة، الموجزة، والمعبّرة في آن واحد.

أنت الذي تكتفي بقراءة رسائلي عن بعد، أشتاق لِلمس أصابعك النحيلة والجافة، حين ألتقي بك سأحتضن أصابعك بين يدي طويلاً.

* * *

يرعبها في ظلمة الليل صوت بكاء الأطفال الذي يعبر المسافات. لا تعرف من أين تتسلل هذه الأصوات لكنها تئن بوحشة مخيفة، أنين متقطع يرشقها بكل ذكريات الموت التي عرفتها من قبل. إنه الأنين المكتوم لأصوات الأطفال الملتاعين لأسباب تجهلها، أصوات سمعتها من قبل حين مات والدها، وحين ماتت جدتها زينب التي أحبتها جداً. كانت أصوات الأطفال تختلط أيضاً بنواح مفزع لأمهات ثكالى، وبعد ذاك النواح ترتفع أصوات مواء قطط متوحشة، مع هيجان خراف، وخوار أبقار هائجة، وكلاب شرسة، ووطاويط ترسم أشكالاً هندسية في حجب الظلام. لكن يظل صوت مواء القطط المزعج يتكرر بعد أن تصمت الأصوات الأخرى. لم تحب القطط، كانت تخشاها، منذ تلك المرة التي خدشت فيها القطة وجهها، عرفت أن القطط شرسات في بعض الأحيان.

مووووو... ووووو...

ييييييي. هووووووو...

عيييي... عيييي...

همممم.... مممم...

همهمات، تمتمات، أصوات تسمعها زينب، لكنها لا تعرف مصدرها.

هل هناك وهم في ما تفكر به؟

هل هذه هلوساتها السمعية التي كان د. رامي يكرر لها السؤال عنها: "هل تسمعين أصواتا غريبة؟"، وكان ردها دائما بالنفي. ربما هذه هي الأصوات التي يقصدها. لكن لم تكن تلك الأصوات فقط هي التي تسمعها. صارت تسمع أغنيات خافتة قرب سريرها في ليال كثيرة، كما كان هناك أشخاص ينادون عليها حين توشك على السقوط: "زينب.. زينب.. زينب". لذا ظنت لبعض الوقت أن مشكلتها تكمن في عدم القدرة على الفصل التام بين ما يحدث في سريرها ليلاً، وبين ما تراه في الواقع، وأن ثمة تسريباً يحدث من ذاكرتها الليلية إلى ذاكرتها النهارية، وإلا لما تداخلت التفاصيل في ذهنها إلى الحدّ الذي أفقدها القدرة على التمييز الدقيق. أحياناً كانت ترفع يدها في الظلام وهي نائمة تتحسس طريق قلم رصاص وورقة تضعهما على المنضدة الصغيرة قرب سريرها، تُخرج يدها من تحت الغطاء وتكتب كلماتها في الظلام من دون أن تغادر السرير، أو تكلف نفسها بإضاءة النور الخافت قربها.

حين تقرأ تلك الكلمات في الصباح تعرف أن ذاكرتها مجرد ورقة شفافة، أو ورقة كربون يتم عبرها نسخ الأشياء، والتفاصيل، والحكايات، ما حدث منها وما لم يحدث، والممكن حدوثه أيضاً.

لا يهم أن اسمها زينب أو أي اسم آخر، لكن هي وحدها التي

تكون في لحظات قليلة مجرد كائن شفاف تصب فيه أفكار مجهولة، من دوائر كبرى لا تعرف عنها شيئاً. وسط تلك التخيلات، رأت شبح مارغريت، وقادها الأيام لمعرفة حكايتها، والكتابة عنها.

* * *

يان

عندما تنقطع الكهرباء ليلاً، تنقطع صلتي مع العالم، إلا عبر راديو صغير أحرّك إبرته بملل بحثاً عن أغنية تحملني لزمان آخر، لمكان ما لا توجد فيه حرب.

شمعة صغيرة تعكس خيالات على أثاث الغرفة، ثم صوت فيروز يغنّي:

"زعلي طوّل أنا وياك..

وسنين بقيت،

جرب فيهن أنا أنساك..

وما قدرت نسيت".

لماذا هذه الأغنية اليوم؟

لماذا علي أن أحكي لك قصة "حامد" أيضاً؟

كلما كان يأتي لزيارتنا كانت أمي تسخر مني وتراهن على تخلّيه عني في أقرب فرصة، تبرهن على نظريتها بأن "حامد" ابن عمتي لا بد أن يكون مثل أمه؛ لا يحمل لنا أي ود.

الصلات كانت مقطوعة بين أمي وعائلة أبي، ولم تكن تشجع على زيارتهم حتى في المناسبات. العداء بين أمي وعمتي كان جهراً. وحده "حامد" صار يزورنا في بعض الأحيان منذ التقيت به خلال دراستي في الجامعة. كان في السنة الرابعة وكنت في سنتي الأولى، ورغم الجفوة بين العائلتين، ورغم إظهار أمي عدم رغبتها في استقباله، إلا أنه حاول أن يبني علاقة ألفة مع إخوتي بعد بداية قصة الحب بيني وبينه.

بعد تخرجه بدأ "حامد" يتغير... لا أعرف السبب... انتهى كل شيء بشكل غامض، وبلا تصريحات محددة، انقطع عن زيارتنا فجأة، وانقطع عن القدوم إلي في الجامعة، ثم كان يترك هاتفه مغلقاً في معظم الأوقات. ظللت أحبه أكثر من عامين لكن في النتيجة صدّقت نبوءة أمي. لقد تخلى عني وسافر إلى أميركا. لم أدرك غاية كلامه حين كان يحكي عن السفر، وعن ضرورة الهجرة من لبنان، لم أعِ ما قصدَ حين كان يشكو باستمرار من غياب فرص العمل، لم أفهم بدقة أنه كان يمهد لي ويبرر ما سيفعله.

أمي كانت فرحة عندما أنهى علاقته بي، وكذلك عمتي التي لم تكن أقل عناداً وحقداً من أمي.

وحدي في العتمة الآن أستمع لفيروز تغني. وحدي ظللت أبكي لسنوات لأنني لم أخمن السيناريو الحقيقي للهجر.

بعد سفره بستة أشهر تزوج "حامد" من فتاة عربية تحمل الجنسية الأميركية، الآن هو زوج وأب لطفلتين "نور" و"سلمى". كنت أتابع أخباره من بعد.

أما أنا فما زلت هنا أتفرج على خراب بيروت وأسمع نشرات الأخبار عبر راديو صغير.

لماذا أتت الحرب هذا العام الذي كنت أراه مختلفاً عن أعوامي السابقة؟!

في هذا العام توقفت عن التدريس، تمردت على قرارات أمي، قلت لها: "لا، سأبحث عن عمل آخر". للمرة الأولى أجرؤ على الرفض، هي اختارت لي دراسة الرياضيات، سخرتْ مني حين قلت لها إنني أود أن أكون مضيفة طيران، أن أسافر كثيراً، وأبتعد كثيراً ثم أعود. ربما لم يكن حلمي الأصلي أن أكون مضيفة، كنت أحلم بالبحر، كنت أفكر في أمر ما يجعلني قريبة من البحر دوماً، ثم عرفت أنني لن أكون بحارة أبداً.

لم تكن أمي تهتم كثيراً بما أريده، تعرف أنني سأنفذ قراراتها في نهاية الأمر. في كل عام كنت أحقق لها حلمها، أنجح بتفوق حتى تخرجي في الجامعة، أمنحها الفرصة لتردد بفخر أنها سبب نجاحي، تماماً كما فعلت حين قدمت أوراقي للعمل في المدرسة التي تعمل فيها هي. وتم قبولي، ولم أتمكن من الرفض.

* * *

وسط جراحات قديمة، تضاعفها حالة الثمل، أرادت مارغريت مواجهة الألم العصبي الذي يسببه وجود يان أندريا في حياتها. كانت تحدق في أشيائه الموجودة على الطاولة، علبة سجائر، ولاعة، ميدالية مفاتيح، وعلى المشجب هناك قميصه الأبيض، الذي يبدو يان حين يرتديه مفعماً بحيوية مبدعة. كانت تحس أن فكرة شبابه الوحشي

في حد ذاتها تسبب لها الهلع، وتدفعها لطرده خارج هذا البيت. رغم أنها فعلت هذا أكثر من مرة، إلا أنه يظل هنا، يصر على البقاء معها.

إنها تخشى غيابه، تخاف أن يقرر هو المغادرة ذات يوم، فلا تتمكن من منعه، لذا تحاول إبعاده باستمرار، لكنه لا يبتعد. أحبت رسائله التي كتبها لها، أحبت كلماته البسيطة التي يصف عبرها العلاقة مع الحياة، والحب، والموسيقى، والشغف. راقَ لها حوارهما الليلي المفتوح الذي لا يحده وقت، واستسلمت له وهو يساعدها على التخلص من هذيان أشباحها الصامتة عبر الكتابة عنهم. أحبت القهوة التي يعدّها لها في الصباح، والحساء الذي يطهوه من أجلها. كما ارتاحت من عناء التفاصيل الحياتية المطلوب منها القيام بها، صار يان يتدبر الأمر.

أحبت مارغريت نزهاتهما على الشاطئ، وحديثها غير المحدود معه. حكت له عن أيام كمبوديا، وعن ليالي فرنسا، عن أمها القاسية، وأخيها الأصغر الذي مات وهو طفل أحبته كثيرا، وبكت حين فقدته، بكاء لن يتكرر طيلة حياتها. حكت له أيضاً عن عاشقها الأول، الذي لا تعرف ماذا حَلَّ به الآن.

ماذا حَلَّ بالعاشق البعيد في كمبوديا؟

هل مات؟ كان يكبرها بعشرة أعوام، كان في السادسة والعشرين، وسيماً، أنيقاً بأبهة رفيعة تتناسب ومكانة عائلته، ما زالت تذكر ولاعة سجائره المنقوش عليها بالذهب الحرف الأول من اسمه، وما زالت تذكر كيف كانا يقفان معاً تحت المياه المنسابة من الرشاش المصاب بالصدأ في ذاك الأوتيل الرخيص والمشبوه، كان يفرك جسدها بيديه، يغسل حلمتيها الصغيرتين، كما كان يمسح الدماء عنها في أوقات عادتها الشهرية، ويكتفي بتقبيل جسدها وملامسته بغرام، وهو

يقول لها إن الحياة تتجدد في جسدها الآن.

كان العاشق يسألها في كل لقاء إن كانت تلتقي مع رجال آخرين، كانت تجيبه بالنفي. لكن هي الآن لا تفكر في سؤال يان أندريا عن سبب عدم لقائه مع نساء أخريات، بل عن سبب رغبته في البقاء معها.

* * *

يان..

عالمي يغرق

الأشياء تتبدل حولي بسرعة قصوى، تفوق قدرتي على الاستيعاب.

دوران.. دوران... جنون..... آلة الحرب وقودها أجساد طرية.

مكان قلبي صار فجوة سوداء، وكما لو أن وحشاً كبيراً التهم عضلة القلب عندي وترك مكانها فراغاً..... وتركني أحيا هكذا؛ بجسد جراحه مفتوحة تواجه الشمس والهواء.

الأرض تلفظ أحشاءها إلى الخارج.

الأبنية تتساقط، كما لو أنها ديكور ورقي لتصوير أحد الأفلام، لكن الجثث الساخنة تفوح منها رائحة الدم.

وحدها السماء بدت بعيدة جداً، لا ينعكس على صفحتها الزرقاء الركام الذي حولنا...

وحدها السماء لا تعرف الخراب الذي يشردنا، لأنها هادئة وصافية أكثر من المعتاد.

عالمي يغرق... وأرى الكل حولي يغرق. نساء ينمن على الأرض، رجال عجائز يحملون شيخوختهم كعبء ثقيل لا يساعدهم على التحرك. الصور التي تركض على الشاشة، تؤكد أن عالمي يغرق.

لم يعد هناك شيء أبحث عنه الآن. كل شيء تبدل.

لماذا لا ترد على رسائلي؟

العالم غريق، عالمي غريق..

صوت المرأة التي تحكي عن موت أبنائها الأربعة، يتردد صداه في قاع روحي وهي تصرخ.

أسمع رجع الصدى حتى الآن...

من أي البوابات أدخل للمدينة التي لم أعرفها؟ متعبة أنا إلى حد التفتُّت. طائر هدهد ماكر نقر قلبي، وترك في صدري ثُقباً بحجم رصاصة.

هل علي دائماً إيجاد أسباب منطقية لدخولي حدود الرغبة؟

أنت تشرب قهوتك في مقهى على الرصيف، وأنا أنتظر.

أصابعك قليلة البوح تشبه حكيماً صينياً عجوزاً لا يحمل ساعة.

سأظل أنتظر.

* * *

وقفت زينب تنظر إلى جسدها في مرآة الحمام. المرآة الطويلة والعريضة، عكست صورتها فبدت أكبر حجماً. في المرآة يبدو وجهها شاحباً جداً، ليس هناك حضور لأي لون سوى لون عينيها الأسود، وسط مساحة وجهها الصغير والحنطي. هناك هدوء في ملامحها، هدوء تراه مزعجاً، كما لو أنه الصمت التام. في مرآة الحمام نظرت إلى جسدها العاري والنحيف، صدرها البارز لا ينسجم مع ملامحها الغلامية.

كان شعرها الكثيف والمتدرج قد طال حتى غطى نصف ظهرها في وحشية لامبالية.

أحست برغبة كبيرة في قصه، ليصير قصيراً جداً، هي تربطه دائماً إلى الخلف تحت حجابها الأبيض، وقلما تركته منساباً. شعرها هو الشيء الوحيد فيها الذي يحظى بثناء أمها لغزارته ونعومة ملمسه. وسط هذا الشعر الأسود كان هناك شعرات بيضاء متوارية، لا يعرف بوجودها إلا صاحبتها.

بسهولة، بدأت زينب قص خصلات شعرها، حتى تجمعت قرب الحوض كومة من الشعر الأسود المقصوص من جذوره. قصت شعرها إلى الحد الذي لم يعد من الممكن الإمساك به، لم تكن تقص خصلاته وفق خطة معينة، بل بشكل عشوائي أخرق. رأسها صار خفيفاً جداً، وحين وقفت تغتسل تحت رشاش الماء أحست أن رغوة الشامبو تخترق جلدة رأسها، ودت لو أن بإمكانها نزع جلدة رأسها ورؤية ما يقبع تحتها. كانت زينب دائماً كلما رأت جمجمة،تتخيل أنها في وقت ما ستتشابه معها، وأن رأسها هذا سيكون عارياً من كل شيء، من الحجاب الأبيض

الذي يغطي شعرها، ومن شعرها الذي تخفيه، ومن عينيها، ومن اللحم الذي يكسو وجهها ليكون وجهاً. لكن زينب كانت تتساءل عن مكان ذهاب أفكارها بعد سيلان اللزوجة وتخثر الدم الذي يختبئ داخل الجمجمة. تذكرت جارهم خديجة التي أجرت عملية لنزع ورم في دماغها، وكيف كانت تحكي للجارات – كما لو أن هناك زجاجاً عازلاً يفصلها عن الحدث– مشبهة حجم الورم في رأسها بحبة الخوخ. صارت زينب تتذكر ورم رأس خديجة كلما شاهدت حبة خوخ، وربما منذ ذلك الحين امتنعت عن تناول الخوخ لأنها تخيلت أن كل خوخة ستتحول عصارتها إلى ورم صغير يتجمع في رأسها.

الآن تخلصت من شعرها الأسود، ومن الشعيرات البيضاء التي توارت في وسط رأسها، الآن صارت متحررة من ثقل تحمله، لكنها أحست برغبة قوية في نزع الحجاب وارتداء قرط كبير دائري والسير في الشارع. ستؤرخ لهذه الحرب بقص شعرها الطويل، وبنزع حجابها الأبيض، وحين تعود للحي الذي تسكن به في "بير العبد" بعد انتهاء الحرب، لن يعرفها أحد من الجيران، وربما يقولون: "مسكينة.. شو عملت فيها الحرب". ربما يحصل هذا، وربما لن ينتبه إليها أحد، وربما يتعاملون معها بتجاهل، ببرود كما ستفعل أمها حين ترى شعرها مقصوصاً، ستبدي دهشة للحظات قليلة، ثم تعود لطبيعتها، لكنها حتماً ستطرح عليها السؤال: "لِمَ قصصتِ شعركِ إن كنتِ تريدين نزع الحجاب؟". لكن زينب لن ترد عليها، بل ستحدق في عينيها مباشرة بلا خوف، لأنها تمتلك الآن رأساً جديداً ابتدعته الحرب.

* * *

استيقظت مارغريت من رقادها فزعة، كان الوقت قبل الفجر بقليل، نظرت إلى الغرفة من حولها، أحست أن الأصوات التي تسمعها غير بعيدة على الإطلاق، منذ عادت من المستشفى ليلة أمس، وهي تحس أن يان أندريا عبث بالبيت في غيابها، واستقبل أصدقاءه الذين ما زالوا يقيمون في إحدى الغرف، لكن الإنهاك الذي تحس به يجعلها عاجزة عن التحرك والتفتيش. كان يان يغفو على الكرسي الهزاز بجوار سريرها، نادت عليه مرتين أو أكثر، وحين اقترب منها ليعدل من جلستها في السرير كما أشارت له، سألته بوضوح عن الأشخاص الذين يقيمون معهم في البيت، من هم؟ ومن أين أتوا؟ ولماذا؟ وكيف يسمح لهم بالإقامة في بيتها خلال غيابها؟

أكد لها يان أن البيت خال إلا منهما، لكن مارغريت أصرت على المشي خارج السرير والنـزول إلى الطابق السفلي، طلبت منه أن يفتح الأبواب كلها، كي ترى من في الداخل، كانت تسمع ضحكات وقهقهات لأشخاص يتسامرون، ويرقصون على صوت موسيقى صاخبة. لم تهدأ مارغريت، ولم تقتنع بذلك إلا عندما طاف معها يان في أرجاء البيت حجرة حجرة، حتى إنه اصطحبها إلى الحديقة ليفتشا معاً عن مصدر الصوت، كانت تشد على يده بقوة، كما لو أنها تريد إثبات كذبه وخيانته.

في الصالون جلست مارغريت على الأريكة المشجرة، شاحبة، متعبة، أصابعها متيبسة وهي تود الكتابة، طلبت من يان أن يناولها ورقة وقلماً، خطت بعض السطور لكنها لم تَقْوَ طويلا على الجلوس، صداع يطحن رأسها، وداهمتها رغبة بقيء مفاجئ، أسندت يدها العجوز

إلى المقعد وسارت بصعوبة نحو الحمام، فيما كان يان أندريا يجهز لها طعام الفطور.

* * *

يان..

صباح يوم جديد. إنها السادسة. أشباح المدينة ما زالوا تحت الركام. ألمحهم يتململون منذ الفجر، لكني لا أقوى على مساعدتهم. الحر قاتل. أفتح النافذة وأشتاق للبرد. البرد يدفعني إلى صدرك. أشتاقك كثيراً لكنك تمضي، تمضي بعيداً.

صوت فيروز يعلو من جهاز راديو صغير، عبر إذاعة محلية:

"أديش كان في ناس..

عالمفرق تنطر ناس..

وتشتي الدني...

ويحملوا شمسية..

وأنا بأيام الصحو

ما حدا نطرني"..

انتظرتك، لكن خراب المدينة أفزعك. ، فلم تأت.

يان..

هل جربت أن تترك بيتك فجأة بلا تخمين أنك لن تعود إليه مرة

أخرى، ولن تجد أشياءك؟

لم يبق شيء من صور طفولتي، ولا صور إخوتي وأصدقائي حين كانوا صغاراً. لم تبق أية ورقة من رسائل الأحبة التي وصلتني أيام المراهقة، والتي كنت أخفيها في صندوق خشبي أحتفظ فيه بأشيائي القديمة.

تكسرت زجاجات النبيذ الفارغة التي كانت ساندرا تنقش اسمي عليها في كل ذكرى ميلاد لي،

كل أشيائي صارت تحت الركام.

* * *

كانت الساعة الثانية ظهراً، حين دخلت زينب إلى غرفة أخيها وسام، بناء على طلب الأم، التي طلبت منها إيقاظه لأنها تود أن تناقش أمرا عائليا في الحال. كانت غرفة وسام عابقة برائحة الحشيش، وعلى الطاولة ميزت زينب شريط حبوب "الإيكزانيكس"، بين مجموعة من العقاقير الأخرى، يتركها إلى جانب جهاز كمبيوتره الخاص على الطاولة، المزدحمة بأكواب شاي ونسكافه، وفناجين قهوة، وطبق صغير فيه كومة من أعقاب السجائر، علب بيرة فارغة تحت الطاولة، وبقايا أكل من ليلة البارحة أو قبل ذلك. لم يكن يسمح لأحد بدخول غرفته أو تنظيفها إلا في الوقت الذي يختاره هو، لذا غالبا ما يكون مكانه غير نظيف، وأكسجين الغرفة يعبق برائحة السجائر، والنوم الهارب واللامبالاة الأصلية.

ما إن رفع رأسه ونظر إلى زينب حتى طلب منها أن تصنع له القهوة.

"بسرعة" قال، مبدياً انزعاجه من إلحاح أمه لحضور جلسة عائلية في هذا الصباح.

لا ترى زينب في أخيها الأكبر إلا سبابة يده اليمنى التي يهزها دائماً في وجه الجميع حين يتحدث. تخيفها تلك السبابة، بل إنها سببت لها الانهيار في كثير من المرات، حين ترى الأم تسكت عن كل أفعال وسام، وتتراجع أمام تهديداته كلما هز سبابته في وجوههم متلفظاً بأبشع الألفاظ، ملوحاً بتركه البيت.

منذ قامت زينب بالعلاج النفسي تمرنت على تجاهله بهدوء، أخرجته من دائرة حياتها، وتعلمت أكثر كيف تتوحد مع ذاتها. لم يحصل هذا بسهولة، كانت تحتاج لإرادة كبيرة كي لا تقوم الأم بالضغط عليها وابتزازها مادياً ومعنوياً إرضاء للأخ الأكبر.

الخوف من الوحدة جعل الأم تمارس على أبنائها سلوكاً نفسياً مسيطراً كي يبقوا معها، لذا لم تكن منـــزعجة لأن زينب لم تفكر في الزواج، ولهذا السبب تعاملت معها على أنها ستبقى إلى جانبها مهما كانت الأحوال، فهي تعرف أن زينب المترددة لن تقوى وحدها على اتخاذ أي قرارات مصيرية في حياتها. لم تدافع زينب عن علاقتها الأولى مع ابن عمتها حامد، اكتفت بمراقبة سخاء الكراهية المسمومة التي تم تبادلها بين أمها وأم حامد، عبر تبادل المراسيل عن استحالة الرضا عن تلك

العلاقة، ثم في ما بعد انتهى كل شيء.

لم تبذل زينب جهدا أيضاً لجعل عائلتها تتقبل مازن. كل ما فعلته أنها اكتفت بدعوته إلى البيت لزيارتهم، وحين لاحظت الفتور الذي أظهرته أمها ووسام، لم تجرؤ على دعوته مرة أخرى، كما أنها لم تناقش حقيقة علاقتها به مع أحد من العائلة. ظلت تقابله سراً، إلى أن طلب منها هو حسم أمرها، ولم تتمكن من الحسم.

جلس وسام على أحد المقاعد في الصالون، ممدداً جسده الطويل والعريض بكسل، مال برأسه إلى أسفل معبراً بشكل مسبق عن سأمه. كانت الأم ترتدي بنطالاً من القماش لونه بني، وقميصاً من اللون البيج. بدا عليها كما لو أنها تستعد للمغادرة، هذه هي الهيئة الأنيقة التي تحرص عليها دوماً. أعلنت أنهم سينتقلون قريباً إلى زحلة، لأن أعصابها لم تعد تحتمل الحرب وأصوات القذائف، ولأن الحرب كما يبدو لن تنتهي قريباً، لذا ستكون زحلة أكثر أماناً وهدوءاً، وبعداً عن خطر الحرب.

بعد انتهاء الأم من كلامها، رفع وسام رأسه، وبدا وجهه خاليا من أي تعبير، لكن صوته كان حاسماً، حين قال إنه لن يستطيع البقاء معهم في زحلة، لأنه لن يبقى في لبنان كله، فقد قرر السفر إلى الخليج. سيغادر إلى دمشق، ومنها إلى أبو ظبي، حيث يقيم خاله الذي يسكنون في بيته الآن، والذي ساعده منذ أشهر في الحصول على فيزا وتأمين عمل له، لكن وسام حينها تراجع عن السفر، مستهتراً بمحاولات خاله، وتوسلات أمه التي رجته أن يقوم بتجربة السفر، كمحاولة لإيجاد شكل آخر لحياته. فهو منذ تخرجه في الجامعة لم يحرص على الإنتظام في عمل مستمر أبداً،

وإن فعل ذلك لأشهر قليلة كان يعيش بالطريقة نفسها مبدداً راتبه بين البارات، وبين أقساط السيارة التي حطمها بعد أشهر من شرائها في حادث ليلي على طريق الجبل حين كان ثملاً، وتولت الأم تسديد ما تبقى من الأقساط التي لم يدفعها ابنها.

انتابت الأم صدمة، حين سمعت ابنها يعلن عن قراره بالسفر، ولم ترد بأي كلمة، لأنه تركهم ودخل الحمام، في حين كانت الأم وسامر في حالة ذهول من قراره المفاجئ. علّق سامر بأنه يحتاج الذهاب إلى بيتهم لإحضار بعض الأغراض، بدا على الأم كما لو أنها لم تسمعه، أما زينب فقد ظلت صامتة تتأمل مدى الانكسار والألم على وجه أمها التي شاهدت فيه هزيمة تفوق هزيمة الحرب. رفعت الأم رأسها نحو زينب، كانت في عينيها دموع متحجرة.

* * *

يان..

ربما تمر أيام فلا أكتب لك. سنغادر غداً إلى زحلة. سأحكي لك عن هذه المدينة التي أحبها، عن أيامي الماضية فيها. قبل الحرب بأيام قليلة كنا أنا وساندرا في زحلة، مشينا قرب البردوني، سرنا بمحاذاة النهر على درج حجري، نشمّ رائحة الطبيعة، ونلمس أوراق شجرة "الحرير". حين عدنا وقفنا نلتقط الصور أمام "كازينو عرابي" بجانب تمثالين لأحمد شوقي وعبد الوهاب. نأكل آيس كريم، ونمشي في شارع زحلة الرئيسي، ننتظر

سيارة تنقلنا إلى شتورة ومنها إلى بيروت. ثم اتفقنا على القدوم مرة أخرى بعد أسبوع.

كنت أعرف تلك المدينة جيداً، كانت أليفة بالنسبة لي.

منذ أعوام كنا نمضي أشهر الصيف فيها، في بيت صغير ورثته أمي عن أسرتها.

في زحلة يكون الهواء باردا في الليل، ويترك لسعة لذيذة عند أول الفجر، وتلمح الندى على ورق الورد الطري، لكن في الشتاء هناك وجه آخر لتلك المدينة. أمضينا فيها أحد الشتاءات حين كانت بيروت ساحة معارك، واضطررنا – كما الآن – أن نغادر بيتنا.

تتغير رؤيتنا للأماكن، تتبدل علاقتنا بها مع الوقت، ومع كل شهر، ومع كل فقد، ربما لهذا السبب ما زلت أفتش كيف نشأت علاقتي الأولى معها، مع تلك المدينة (البلدة) الغامضة، المعلقة، الغافية على كتف الجبل. تلك المدينة التي تنطوي على نفسها مساء لتشبه القرية، وتنفتح عند الصباح بحثاً عن جديد ما، عن مجهول لم يصل إليها من العاصمة.

البيت الصغير الذي يفيض بحيوية صيفاً، يصير بارداً وموحشاً أيام الشتاء. جدرانه مخزن للصقيع، ونوافذه وأبوابه ممر للهواء البارد، كانت المياه تنــز من بعض الزوايا ومن سقف الحمام والمطبخ، وحين يهطل الثلج نُحاصر في البيت لأيام عدة. لم نعرف البرد كما عرفناه في ذاك الشتاء، كان الصقيع ينخر عظامنا، ويترك أطرافنا تتجمد. البيت لم يكن مجهزاً لمواجهة رياح الشتاء وعواصفه، كان بحاجة لبعض الترميمات

لتجعله صالحاً للسكن. أرشدنا الجيران إلى ضرورة تركيب مدفأة على الحطب أو المازوت. وضعت أمي مدفأة في كل غرفة، ما عدا حجرة الصالون على اعتبار أن لا أحد يأتي لزيارتنا سوى قلة من الجيران وكانوا يجلسون معنا في حجرة الجلوس.

لم نكن أيضاً مجهزين بالمؤن الشتائية التي يخزنها أهل زحلة، مأكولات الشتاء قمح، برغل، عدس، مربيات، ولحوم مقددة، يخزنونها خوفاً من الحصار أيام الثلج، عندما تنقطع الطرق الرئيسية للبلدة. خلال الشهر الأخير من الصيف كنت أرى أسطح الجيران مفروشة بالقمح، الذي سيتحول إلى "مونة" يصنعون منها البرغل والكشك ويطحنون جزءاً منه ليكون دقيقاً لصناعة الخبز والكعك والحلويات.

عندما نزور جارتنا "فادية" كانت تقدم لنا مع الشاي التين المجفف، والزبيب الذهبي، واللوز، وقطعاً من الكعك، مع مربى المشمش. أحس بالدفء في بيت "فادية"، دفء لم أعرفه في بيتنا.

في أول زحلة يوجد تمثال فتاة الكرمة، وفي وسطها تمثال العذراء مريم يبدو عالياً وبعيداً،

البيوت الحجرية القديمة على يمين الطريق، كما لو أنها معلقة في الجبل.

بين شهري تموز وآب تتزوج الفتيات ويغادرن بيوت آبائهن، تقام الأعراس لأيام ثلاثة، ويأتي الى أطراف المدينة "النَّوَر●" الذين ينصبون

النَور : هم الغجر، قوم رَحل يسكنون في الخيام على أطراف المدن، أو خارجها. ●

خيامهم في كل صيف، ويرحلون مطلع الشتاء. منعزلون، يسكنون عند الأطراف، منغلقون على أنفسهم، لا يتكلمون مع سكان البلدة، وإذا حاولت الكلام معهم يفرون منك. تقول أمي إنهم يخطفون الأطفال. كانت جدتي تحكي لي قصة "جبينة" التي خطفها "النَّوَر" من حضن أمها وهي نائمة. أصدّق كلام جدتي عن "النَّوَر"، لكنني لا أخاف منهم.

في أيلول الحزين تنزل زخات المطر الأولى... ورائحة الأرض الرطبة تعبق حباً في القلب... في الصباح أشاهد جارتنا "رجية"، وأشمّ رائحة مناقيش الزعتر التي تخبزها على التنور.

في شهر تشرين الأول، يرحل "النَّوَر". تُقطف الكرمة... تصنع النساء الزبيب، يجففن التين، يصنعن مربى التفاح والسفرجل، ويخبئن القمح لأيام الشتاء.

في شهر تشرين الثاني تنصب مدافئ الحطب استعداداً للبرد، وفي كانون الأول تأتي عواصف بلا رحمة. المدينة تنغلق على ذاتها، تنعزل مرة أخرى، أسمع صوت انهمار المطر الكثيف، أرى الصدأ الذي يتركه على الأبواب، ثمة وحل في الطريق، هناك برد كثيف.

رجية صديقتي العجوز ماتت في اليوم الأول من كانون الثاني. آخر مرة رأيتها في آخر أيام الصيف الماضي، كانت تقف بجوار شاب صغير يصلح لها شبابيك البيت خشبية تسرب المطر في الشتاء، لن أرى "رجية" بعد اليوم، لن ألمحها وهي تمسك بمكنستها وتحركها وهي ترفع صوت الراديو على أغنية لوديع الصافي. ولن أشمّ رائحة مناقيشها المخبوزة على

التنور.

كثير من الوجع تحت معطفي.... الحياة شرك كبير، ولا يوجد ما يعوض الغياب.

في أحلامي أرى المطر يُغرق البلدة، نهر "البردوني" يفيض ويقتحم البيوت.... كل شيء مبلل، وأجساد الأطفال خرق بيضاء مجمدة، فيما العجائز يتحولون إلى هياكل متجمدة.. كما لو أنه الطوفان.

أهرب من أحلامي، لكن الكابوس يعود إلي على شكل غبار كثيف يقتلع أوراق الشجر، ويدخل التراب في العيون، فتنحجب الرؤية.

كم مضى على موت "رجية " .... لم أعد أعرف. ربما أشهر... ربما أعوام.

لكن الحياة تمضي، والمطر يبدل ثيابه مع كل شهر.

وأنا هنا أفتح شاشة كمبيوتري فأجدها بيضاء أيضاً. انتظرت رسائلك، وطرحت عليك أسئلة كثيرة، عنك، عنكما، لكنك لم ترد على أسئلتي.

هل علي أن أنتظر طويلاً، حتى تأتي كلماتك التي أريدها؟

* * *

في سريرها، كانت مارغريت تفكر بكلمات يان أندريا، وبكل ما سمعته وشاهدته، لم تفهم ما حصل، ولم تعرف هوية هؤلاء الأشخاص الذين تجولوا في بيتها وهم يضحكون ويشربون البيرة، ويخططون للذهاب في نزهة على الشاطئ، لكنها متأكدة أن يان أندريا كان

معهم، أو أنه يقف على مقربة منهم. كان يتفرج ولم يشاركهم الحوار، ثم في ما بعد شاهدتهم يتمددون على الأرض، ما عدا فتاة شقراء كانت تقف جانباً غير مبالية بهم لانشغالها بتقشير برتقالة طازجة. ناموا في الغرفة الكبيرة المجاورة لغرفتها، أجساد طرية شابة تتمدد على الأرض ـ لسبب لا تعرفه. أرادت الوصول إلى النافذة الواسعة في نهاية الغرفة، عبرت من فوق تلك الأجساد وهي تنادي على يان. لم يحس أحد منهم بعبورها فوق أجسادهم، فقد كانوا متعبين ونائمين. حين وصلت إلى النافذة أرادت القفز إلى أسفل، أحست بقوة شديدة تدفعها للنزول إلى الحديقة، لكن الحديقة بدت مختلفة أيضاً. كان هناك رمل ناعم على الأرض يشبه رمال الصحراء، كما رأت سنجاباً صغيراً، وكلباً مخططاً يشبه كلاب الصيد. رأت أيضاً ضفدعاً بحجم جرذ أثار دهشتها الشديدة لوجوده في هذا المكان. بدا لها الرمل الناعم مغرياً للسقوط، دافئاً إلى حد الاحتضان، نظرت خلفها نحو الأجساد الممددة على الأرض، وجدت عيوناً كثيرة تحدق فيها، ثم أيْدٍ طويلة تمتد نحوها وتشدها إلى الخلف وهي تصرخ، وتدفع نفسها نحو النافذة، لكنهم لا يهتمون بصراخها. ثم فجأة ظهر يان أندريا من خلف تلك المجموعة، كان واقفاً عند باب الحجرة الكبيرة، اندفع من بينهم جميعاً وأمسك يدها بهدوء، فيما الجميع يتراجعون إلى زاوية الغرفة، وهي تسير معه لتبتعد عنهم عائدة إلى غرفتها لأنها تحس بالتعب الشديد. ما يزعجها أن يان لا يذكر شيئاً من كل ما حصل، بل إنه لمح أن كل ما حكته ربما حصل نتيجة الأدوية التي تتناولها، هل يقصد أنها تعاني من هلوسة، من اضطراب يجعلها تتخيل أموراً لم تقع؟ قالت له إنها شاهدت معهم فتاة شابة شقراء، طويلة، ترتدي سروالاً قصيراً من الجينز وقميصاً أبيض، تأكل برتقالة وترمي بذورها على الأرض. لكنه نظر إليها واكتفى

يهـز رأسه من دون كلام.

* * *

في هذا الصباح المحتقن، غمامة سوداء في سماء بيروت، تبدو كما لو أنها ابتلعت السماء. كل الأماكن تبدو شبحية، والمدينة ليست هي المدينة.

صوت سيارة الإسعاف يخترق الشارع، تنظر عبر نافذتها إلى الضوء الأحمر يمر خاطفاً، فيما أوراق صغيرة جداً، تسبح في الفضاء، أوراق تتساقط من سماء مكسورة. لم تعرف زينب ماذا تحتوي الأوراق، إلا حين غادرت البيت، كانت تريد المغادرة، نزلت بحجة شراء بعض الأغراض، وحين سارت في الطريق، وجدت أن شوارع بيروت مليئة بأوراق صغيرة مرعبة، تحمل تهديداً بمزيد من الحرب. مناشير ألقتها الطائرات الإسرائيلية – مكتوبة بعربية ركيكة– كي يقرأها أهالي بيروت، بهدف إخافتهم. تنظر إلى بعض المارة، ينحنون لالتقاط المناشير، يقرأونها ثم يلقون بها على الأرض، بعضهم تتجهم ملامحه، يعبس، يبدو عليه الاضطراب، وبعضهم الآخر يبتسم بسخرية، أو يحتفظ بالورقة في يده، ليناقش محتواها مع آخرين. في السوبر ماركت الذي تشتري منه الأغراض، بدت كما لو أنها منومة، يزيد من شحوب وجهها لون قميصها الكريمي. تضع في السلة أشياء ليست في حاجة لها تماماً، لكنها تمارس عبرها الرغبة في الحياة: شامبو للشعر، مزيل للعرق، معطر للجو، أنواع مختلفة من الشوكولا، مكسرات، قهوة وعصير معلب. حين دفعت عربتها واقتربت من المحاسب الذي يجلس وراء الطاولة، كانت عيناه عالقتين على شاشة التلفزيون

الصغير، دخان أسود كثيف داخل الشاشة، والمذيعة تحكي عن اشتعال خزانات الوقود في مطار بيروت. حملت الأكياس وغادرت المكان، بدت لها السماء تزداد انشطاراً، واختفاء، خلف الغمامة القاتمة.

ضوء هذا النهار خافت، لكن ثمة سخونة تعبق في كل شيء حولها، في ذرات الهواء الثقيلة، وفي أوراق الشجر خضراء اللون، حتى الشجر يبدو جزءاً من مسرحية كبيرة، يتقن دوره فيها تماماً. يصمت، يتجهم، يعبس، يشمخ، وينحني وفق الحالة.

في عينيها رغبة بالبكاء، لن تقوى عليه الآن، سارت في طريق مختصرة يقودها إلى البيت، لأنها أحست بعطش شديد، وبثقل الأغراض في يدها، والحاجة إلى إلقاء نفسها على أقرب مقعد.

عند مدخل المبنى، وقفت سيارة سوداء مرسيدس، لامعة، تجلس خلف مقودها المرأة التي شاهدت "وسام" يتحدث معها عند السلالم قبل أيام، والتي تصبغ شعرها بالأصفر وتكبره بسنوات كثيرة، تبادلتا نظرة سريعة عند دخول زينب المبنى، نظرة باردة، وغامضة، لا تكشف شيئاً محدداً.

التفتت زينب إلى الوراء، فشاهدت المرأة تنظر نحوها، وتطلق زاموراً قوياً. بعد أن صعدت زينب أربع أو خمس درجات، التقت بأخيها وسام ينــــزل ببطء وهو يحمل بثقل حقيبة جديدة، متوسطة الحجم، جمع فيها أغراضه، استنتجت زينب أن تلك الحقيبة اللامعة أحضرها له المرأة التي تنتظره في الخارج. نظر وسام في عيني أخته، رأته مرتبكاً، وفي عينيه

رعشة خوف.

"رح تسافر؟".

ألقت زينب سؤالها، وهي على يقين من الإجابة. هز وسام رأسه، وهو يمد يده ليسلّم عليها، فأردفت تسأله بعبارة أخرى وهي تبكي: "كنت رح تسافر من دون ما تودعني؟".

حين سمع الزمور للمرة الثانية، مد وسام يده ليسلّم عليها ويحتضنها، مردداً كلمات تقليدية تتكرر في مثل هذا الموقف. ثم حمل حقيبته وسار مبتعداً. ظلت زينب تنظر نحوه وهو يصعد إلى السيارة السوداء، ويبتسم للسيدة التي تجلس بجواره، ثم يمضيان معاً.

في البيت، كانت أمها تجلس قرب شاشة التلفزيون، تتابع نشرات الأخبار، كانت صامتة، يبدو عليها الألم الشديد، إلى الحد الذي دفع زينب للجلوس قربها وقول كلمة واحدة: "ما تزعلي". هزت الأم رأسها، ولم تردّ، لم يكن بينهما مواقف حميمة، لكن الأم اندفعت في بكاء مفاجئ، لم تَقْوَ زينب على تحمله، إذ قلما شاهدت أمها تبكي، فمضت نحو الداخل. كانت غرفة "وسام" مفتوحة، وحقيبة رمادية، قديمة، فارغة متروكة على الأرض. بدت الغرفة شبحية أيضاً، بل إن البيت كله في نظر زينب بدا مسكوناً بكائنات أخرى من بُعد مختلف تسبح في الهواء، وتراقب بصمت ساخر كل ما يحدث معهم.

* * *

يان..

هل أكتب لك؟ هل لا أكتب؟ كلما هممت بالكتابة، يتردد صدى السؤال نفسه.

في المرآة أرى وجهاً جديداً لي، وجهاً لم أعرفه من قبل، زمني يتصدع الآن، وأنا أراقب وأنتظر. أراقب بعيون واسعة كل ما حدث ويحدث حولي. هناك غرق كثيف، لا أحد يعرف سببه، أرى ماء البحر يتسلل للمدينة، يبلل أقدام الجميع لكنهم لا يعرفون، لا ينظرون إلى الأرض لأنهم مشغولون بمعرفة ما يحدث في السماء.

جارتي التي انتحرت قهراً قبل عامين بسبب خيانة رجل أحمق. ربما لم تنتحر تماماً. لم تكن تعرف أن العالم سيغرق. لو عرفت، ربما أغلقت حنفية المياه قبل أن تموت.

صرت أفكر كثيراً بلحظات موتي، أفكر كيف ستكون؟ أين؟ وكيف سيكون لونها؟

هي أيضاً كانت تفكر كثيراً في الموت، في أواخر أيامها قالت لك:

"أشعر أنني تائهة..

والموت هو البديل..

إنه مرعب..

ما عدت أمتلك رغبة لبذل الجهد..

لا أفكر بأحد..

فما بقي قد انتهى".

لم أصدّق مارغريت حين قالت: "إن الكحول أقوى تأثيراً من الموسيقى والكتابة".

مدام تريز قالت لي البارحة إنه ينبغي علي الصلاة، وأن أضيء شمعة. لكني لم أصل.

أنظر إلى وجهي في المرآة، أكتشف غربتي عنه وآثار جراح، وجهي يصغر وعيناي تتسعان، تضخمت عيناي لتتسعا لمشاهد الحرب.

أشياء كثيرة راحت. صباحات أيام الآحاد الكسولة المتلازمة مع رائحة النعناع الأخضر المرافق لطبق الفول، وأيضاً صوت "الشيف رمزي" وهو يحكي بحب عن أنواع الأطعمة التي ينوي إعدادها.

أشياء كثيرة أصاب ذاكرتها العطب.

يان..

سأكتب لك هذه الرسائل.

لن تضيع.

ولن أسمح للحرب أن تلتهمها.

سأهرّبها في داخلي، وأرسلها لك، لأن ما بيني وبينك يؤرقني.

ما بيني وبينك، أجهل أين أخفيه؟

حاولت أن أخفيه في جذع شجرة سنديان هرمة، لكني انشغلت بملامسة الصمغ الهارب من مسامات الشجرة، انشغلت بالعبث في جذع

الشجرة الهرم، المحفورة على سطحه أسماء عشاق أرادوا تخليد قصصهم بنقش الحروف الأولى من اسمائهم، مع قلوب وسهام صغيرة تنحرف عن مسارها.

ما بيني وبينك أين أضعه، وغصن شجرة من خلف سور مجهول، تسقط منه ياسمينة شاحبة ، أتذوق أوراقها البيضاء بطرف لساني، مُرّة جداً، سأصاب بالتسمم، لأني أعرف يقيناً أني سأذهب ذات يوم ضحية اللون الأبيض.

* * *

قررت رؤية مازن. سارت مساء، في شارع صغير متفرع من شارع "الجامعة العربية"، متجهة نحو بيته، شاهدت كلباً أسود نحيفاً، يجلس باطمئنان في إحدى الزوايا غير معني بتفاصيل الحرب. غمرت زينب قشعريرة خفيفة حين حدق فيها الكلب بعيون ثابتة لا تحيد. أشاحت بوجهها بعيداً عنه، وهي تتخيل أن الكلب الأسود سيشب ليهاجمها من دون رحمة. لا تعرف من أين جاءتها هذه الفكرة، لكنها لم تَقْوَ على طردها، لذا صارت تسرع خطواتها وتتخيل أن الكلب سيلاحقها كما في أفلام الكرتون. لدقائق صارت مشغولة بالكلب الأسود أكثر من الحرب، حينها بدا لها كل شيء في الشارع يتحول إلى لون قاتم لا تعرفه. الشارع كله صار مثل مستنقع حوله سبخات تشد البشر إلى أسفل، وعند الزوايا بعوض كثيف يحوم حول الرؤوس ليمتص منها الدماء. في زاوية الشارع كان هناك خزان ضخم وقفت قربه، ثم نظرت إلى الخلف، رأت ظلال البيوت الشاحبة، شبه المهجورة. بدت لها المدينة في تلك اللحظات، مدينةً

مسحورة بفعل ساحرة، قرأت في سمائها تعاويذ وتمائم كي تحول كل ما فيها إلى اللون الرمادي. حين وصلت قرب المبنى الذي يسكن فيه مازن، صعدت السلالم وهي تلهث، طرقت بشدة على زجاج باب البيت الخشبي الصغير، المتآكل عند أطرافه، والمطلي بدهان أبيض. لم تسمع أي رد، فقط شاهدت بقايا الطلاء تنــز على الأرض بوجع. نزلت السلالم وهي تحس بهزيمة تخصها وحدها. غمرها رغبة حارقة بالبكاء، بالنشيج هنا عند أطراف السلالم الغريبة. دفعت نفسها خارج المبنى لتواجه الشارع الأسود من جديد.

* * *

يان أندريا

الساعة، منذ أمس، متوقفة عند الثامنة والنصف. كلما مررت أمامها كان الوقت الثامنة والنصف. إنه وقت ينفع دائماً للبدايات، لأول النهار، لأول الليل.

صديقي المشغول بالوقت، بالساعات، بالنهايات المبكرة، لم أجده. إنه مشغول عني، مشغول بالحرب، أو بحب يمنعه من القلق. هل يبعث الحب فينا شيئاً من الطمأنينة بالبقاء قليلاً، بنسيان ديمومة الزوال.

لم أتمكن البارحة من فتح زجاجة النبيذ الأبيض، انقسم غطاؤها الفلّيني إلى نصفين، وظلت رغبتي عالقة في الوسط، وجسدي أكثر اشتياقاً.

لكن ماذا يعني الوقت إن لم يكن ثمة انتظار سينتهي، تماماً كما يُنهي

حرف الياء مسيرة الحروف.

أنت الساعة الثامنة والنصف، أنت الرغبة العالقة في وسط زجاجة نبيذ.

هل يهم كثيراً أن نحكي عن رغباتنا، أمنياتنا الغامضة، أحلامنا المجهولة، كف يدنا اليسرى حين تنبسط فَتُسقط منها كثيراً من الحظوظ والنوايا. أغلق كف يدي. أرى أنها تشبه قلبي المرتعش بحب لا مكان له، حب لا علاقة له بالهدوء أو العاصفة، بالحنين أو الشجن، حب يشبه انخطافاً نحو نجمة، أو انجذاباً إلى آخر نقطة في هاوية. لذا ليس عليّ تقديم كثير من التفسيرات، لأني أستسلم لقوة تتجاوزني، وإن لم أترك نفسي لها سأسقط على الأرض ميتة الروح.

فهل هناك من يستطيع معاتبة السماء حين تمطر بغزارة، أو حين تهب عاصفة، أو يهطل ثلج!

في هذه الليلة، أود كثيراً أن أكتب.

* * *

أرادت مارغريت الجلوس في الحديقة، لكنها لم تَقْوَ على السير إلى الخارج. هدوء كثيف تسبح فيه الغرفة. كم الوقت الآن؟ كل الساعات المعلّقة على الجدران متوقفة عن العمل، هي التي طلبت من يان أن يُنهي هذه العلاقة السخيفة مع شئ اسمه "وقت"، لكنها بحكم العادة تتساءل أحياناً عن الساعة التي جاهدت لتتحرر منها، ثم هل هناك فرق بالنسبة لها لو كانت الساعة الثامنة صباحاً أو الثامنة مساء؟! ما الفرق سوى أنها ترغب الآن أن تجلس في الحديقة لتراقب تلك الكائنات المتحررة من

وعيها، من كل هذا العبث غير المجدي. يان أندريا في المطبخ يُعد البطاطا المهروسة، ويدندن بأغنية تشبه لون العشب الأخضر. الأغنيات في ذهنها تتشكل وفق الألوان، هناك أغنيات وردية، ذهبية، بيضاء، هناك أغنيات بألوان واضحة أو قاسية، وهناك أغنيات ملونة، أو باهتة، رثة، بألوان لقيطة. ما زالت مثلاً تذكر أغنية داليدا التي تحبها كثيرا:

.•je suis malade

تلك الأغنية كانت من اللون الذهبي، رغم كل ما فيها من كآبة.

نادت على يان أندريا، بصوت قوي رغم ضعفها.

أصابعها ترتجف وهي تمسك بكأس النبيذ، يهتز السائل الخمري في قعر الكوب، يتمايل ببطء مثل بحر أفكار يحتضر. جلس يان قربها على الكنبة المشجرة، وفي يده طبق الطعام الذي أعده لها، مال نحوها ممسكاً ملعقة طعام صغيرة من هريس البطاطا المسلوقة، أشاحت بوجهها بعيداً مثل طفلة مدللة ترفض الطعام. بدأت تردد كلمات أغنية داليدا، ثم توقفت فجأة عن الغناء وطلبت منه أن يأخذها إلى الحديقة. استندت إليه وهما يسيران ببطء خطوات معدودة، تجلس هناك قرب شجرة التوت لتراقب دودة القز الصغيرة وهي تلتهم ورقة التوت، وتمضي لتنسج قدرها.

* * *

يان..

كم مضى من الوقت منذ كتبت لك آخر مرة... ؟

أغنية فرنسية للفنانة داليدا يقول مطلعها " لم أعد أحلم، لم أعد أدخن، لم يعد لدي قصة، أنا مريضة جدا ..." •

أيام عدة، لا شيء غير الحرب والموت...

لم نغادر إلى زحلة، لأن أشياء كثيرة حدثت.

"وسام" تركنا ومضى. سافر وحده.

"ساندرا" ماتت..

لم تعد "ساندرا" تسير على هذه الأرض وتملؤها مرحاً،

لن تلتقط الصور بعد الآن، بعد أن صارت هي الصورة.

عرفت خبر موتها على مراحل، في نشرات الأخبار لم يعلَن اسمها في البداية، لكن كل القنوات اتفقت على موتها.

صورتها وهي محمولة على سرير نقل الموتى ومغطاة بغطاء أبيض، والخبر يهدر في رأسي: "مقتل مصورة صحافية في ضاحية بيروت الجنوبية".

ذهبت "ساندرا" لتلتقط صوراً للمكان، فصارت هي الحدث والصورة.

روحي كتلة منتّفة متشظية من الوجع.

الموت يزحف نحوي ببطء. أسأل أمي عن سامر، تخبرني أنه مع رفاقه خارج البيت.

"أين مع رفاقه؟"، أسالها بحدة. لكنها لا ترد علي، الآن بعد أن تجاوزت الستين صارت أكثر برودة وصمتاً وأقل اكتراثاً بالتفاصيل، تتركني وتمضي.

أجهش بالبكاء وحدي، أخشى على سامر من الموت....

الموت اقترب من عالمي، وحين يقترب أعرف أنه لا يكون جزعاً، ولا رحيماً في اختياراته.

بعد موت "ساندرا" لمن ستعطي مدام تريز فائض الحنان الذي لديها؟

كيف رحلت ساندرا وحدها وتركت "فادي" بعد قصة حب طويلة تجاوزت خمس سنوات... لماذا رحلت الآن بعد أن وعدته التجهيز للعرس، عرسهما معاً...

اختارت ساندرا الانضمام لقافلة "شادي" في أغنية فيروز. نامت مبكراً جداً، لتترك الشتاء الذي تحبه يمر من دون أن يجدها تركض بكاميرتها لتلتقط تفاصيله.

كل صورنا القديمة تحتفظ بها ساندرا منذ أعوام، لا يوجد على جهاز كمبيوتري سوى بعض الصور القديمة التي سرقتها من دون علمها، صورة ساندرا والسلك الحديدي في فمها صورة لا تحبها هي، وكانت تضحكني. صورتنا معاً ونحن نقضم من منقوشة الزعترنفسها، صورة في المدرسة خلال مسرحية عيد المعلم حين كنت أقلد مديرة المدرسة وساندرا إحدى التلميذات، ثم صورتي معها ليلة الميلاد أنا وهي وفادي وماما تريز، أمها.

المكان الذي كانت تشغله جانبي سيظل مقفراً، وأنا ما زلت أضحك على النكات التي لم تَحْكِها بعد...

لماذا أنا بهذا الغباء إلى حد أنني لم أخمن إطلاقاً احتمال رحيلها فجأة؟

لماذا لم آخذ صوراً كثيرة لنا حين كنا معًا؟ لماذا لم أضع سوى بعض الصور على جهاز كمبيوتري؟

ماتت ساندرا... حقيقة أخرى عليّ تقبُّلها.

حقيقة تشبه بشاعة الحرب ودمويتها. تشبه موت أبي وقسوة أمي التي لا أتمكن من نسيان صفعاتها على وجهي، وأنا طفلة.

الحرب جعلتني أرى أمي تبكي موت ساندرا.... ربما تبكي موت ساندرا، وتبكي وحدتها، وتحزن على غياب ابنها البكر الذي اختار السفر وقت الحرب، ربما تبكي خراب بيتنا، وما ينتظرها من انتظار.... الحرب جعلتني أشاهد دموعها. آخر مرة بكت فيها ربما كانت يوم وفاة أبي. دموع أمي تجعلني أصاب بالدهشة، دموعها القليلة تؤكد لي أنها تستطيع البكاء أيضا مثل كل البشر. هل علي أن أعترف لنفسي الآن أنها امرأة مسكينة... ربما لأن دموعها الاستثنائية تنقلني للتفكير بها وباختلافي عنها.

أحتاج أن أصهر عقلي من الداخل، كي أذيب طبقات سميكة من الذكريات الحارقة. يحدث هذا حين أكتب، حين أحكي معك، وحين أعيد تشكيل حكاية لم أعرفها تماماً. حكايتكما.

* * *

عادت إلى زينب نوبات الأرق الطويلة، والصداع النصفي. الرقاد في سريرها لانتظار النوم يسبب هجوما بربرياً لكل الموتى الذين عرفتهم، تتداخل أصواتهم، وتشتبك، فلا تميز بينهم. حينها تتسلل من سريرها كي

تُدخن في الصالون، أو لتجلس إلى شاشة الكمبيوتر إن لم تكن الكهرباء مقطوعة. كان هناك كلمة عريضة في حجمها وتمددها تزحف إلى ذهنها بسرعة، كلمة تسببت الحرب في حضورها، "الاحتراق". فكرت أن "الاحتراق" ينجم عن حرارة مفرطة، غليان، اشتعال، تفجر حمم غلت في الداخل بما فيه الكفاية، قبل أن تنفجر. لكن الاحتراق عندها الآن يوازي العجز، وعدم القدرة على تغيير شيء. إنه إحساس فردي جداً لا يمكن العبث في تفاصيله لأنه كتلة واحدة حارقة. في مثل هذه اللحظات تنسى كل ما كان يقوله د. رامي، وما تعلمته في جلسات التأمل عن السكون الداخلي، ومراقبة أفكارها من دون تدخل. لم يكن بإمكانها فعل أي شيء من هذا، لأن الأفكار كانت تنثال عليها فتدفعها إلى البكاء من دون صوت، بكاء مكتوماً، يعبر عنه من خلال خط دموع متواصل. أحست بحاجتها للصراخ عالياً حين لمعت في ذهنها صورة والدة ساندرا وهي تحتضن "فادي"، ويشهقان بالبكاء معاً. كلما تذكرت موت ساندرا راودها إحساس عبثي بأن هذا الموت ليس إلا مزحة أخرى، وأن ساندرا ستعود حتماً، ستقرع الباب، وتدخل وهي تحمل حقيبتها الكبيرة التي تحتوي كمبيوترها المحمول، والكاميرا، وأشياء أخرى. كانت تحس أن موت ساندرا حيلة قدرية كبرى لمعرفة قدرتها على عدم الانهيار. سحبت نفساً طويلاً، وهي تضع قدميها على الأرض لتغادر الغرفة. في العتمة أحست أن قدميها شديدتا الجفاف، وكما لو أنها حين لامست الأرض احتاجت لأكثر من عشر ثوان كي تحس بملمس الأرض على باطن قدميها. سارت حافية، وهي تعبر بجانب أمها التي بدت نائمة بعين

واحدة.

تحس زينب أن الأم يقظة على الدوام، وأن أي حركة تقوم بها للبحث عن شيء ما في الغرفة، أو للانتقال إلى الصالون يخضع لرقابة أمها التي لا تنام. تذكرت زينب أن التقدم في السن ربما يسبب اضطرابات في النوم. وأن الحرب، وسفر وسام، وموت ساندرا، أسباب حقيقية تسبب حزناً شاهقاً لا يرحم. لكن في تلك اللحظات تمنت زينب ألا تقوم أمها وتسألها عن سبب يقظتها في هذا الوقت، كل ما تمنته أن تجلس وحدها في الصالون كي تراقب الشارع في العتمة وتكتب.

* * *

يان...

في العتمة، أقبض على نجوم مطفأة، كل ليلة تزداد نجمة. أمرٌ محزن أنك لم تبصر نجومي المضاءة.

أغير الأماكن، أبدلها، ألعب لعبة الألوان، أحكي لنفسي قصة قوس قزح، لا شيء يتغير. رعب يتراكم.. طبقاته سوداء، بين كل طبقة وأخرى تنبثق وجوه لزجة ومخيفة، يمضي ليل طويل. أغمض عيني باتساع في محاولة مني لأرى العالم.

عند الفجر، تتسلل إلي رائحة خبز ساخن. فرح عابر يترع طبقات الرعب.

الآن قبل الفجر بقليل، أفضل الكتابة لك.

هل تحب وقت الفجر؟ هناك مزيج رائحة حلوة يبعثها الفجر في العالم. رائحة لا تلبث أن تتلاشى بعيداً لتعود في فجر جديد. يقظة ممتعة تبث خدراً في الحواس وتستمر كلما استسلمنا لمراقبة رحيل الليل.

من نافذتي التي تطل على المدرسة المسكونة بالمهجرين أراقب فجراً آخر، أناساً ينامون في العراء، وأمّا وطفلة صغيرة لا تتجاوز الخامسة غافيتين على الأرض.

ماذا لو كان الفصل شتاء؟ ماذا لو كانت الأرض مبلولة، والسماء ترسل سيولها؟

ماذا لو استمرت الحرب حتى الشتاء، ولم يعد هؤلاء الأطفال إلى بيوتهم، ولم يلتحقوا بمدارسهم؟

إنها الأسئلة التي تلحّ علي يومياً وأنا أراقبهم من نافذتي.

قبل موتها، فكرت ساندرا بإقامة معرض لصور الأطفال خلال الحرب، كانت تأخذني معها لنطوف على المدارس والحدائق والمستشفيات تلتقط لهم الصور وهم يلعبون ويأكلون ويتحدثون عن الحرب. كانوا يفرحون برؤيتنا يقتربون من الكاميرا يلوحون لها، وكما لو أن ساندرا تمارس معهم لعبة يحبونها، ثم يسألوننا عن الحرب، متى ستتوقف. يظنون أننا نعمل لإحدى الفضائيات، وحين نقول: "قريباً"، يضاعفون أسئلتهم نحو تفاصيل أعمق عن الحرب.

من سيعرض هذه الصور بعد موت ساندرا؟

من سيقدّم للعالم لقطات حقيقية عما فعلته الحرب.

لكن الآن، الآن تحديداً، أنا لست مشغولة سوى بالسكون، السكون الذي يغمرني مثل شعاع مرمري، لا يكذب.

* * *

مارغريت ممددة في سريرها، ويان أندريا يجلس ممسكاً يدها المرتجفة بيده اليسرى، أما يده اليمنى فتمسك قلم حبر أسود يكتب به على ورقة بيضاء كلمات تمليها عليه، وتقطعها لتحدّثه بعبارات توجهها له، فلا يعرف هو ماذا عليه أن يكتب لأنه يحس أن تلك الجمل الموجهة له، جزء من النص أيضاً.

"الوقت... الوقت... الرهان على الوقت أمر سخيف، بلا جدوى، هل تظن أن ليس ثمة رهان يجري من حولي عن مدى الوقت المتروك لي. يا لها من معادلة غبية. ربما تفكر أنت أيضاً في الوقت المتاح لي. لكن الآن.. الآن.. لا شيء بعد الآن سوى الانتظار الممل. انتظار أنا محكومة به، نحن محكومون به كي نبقى. لا فرار، طوال سنوات الانتظار الماضية، كنت أتمسك بزمن "الآن"، وألهث لأمسك بخيوط الكلمات. الكتابة كانت ملاذاً لي. الآن أنا لا أقوى على فعل شيء".

"يا له من أمر سيئ أن نفقد قدرتنا على الحذف، أن نطلب من أحد ما شطب كلمة قلناها، لأننا عاجزون عن الشطب. ولأننا محكومون بالموت، وبفرضية حلم كبير هو حياتنا، التي لن تكون في النهاية أكثر من حلم، حلم قد يستمر تسعين أو مئة سنة، لكنه يزداد بشاعة كلما طال زمنه. وبعد ذلك لا شيء، لن يبقى شئ لأننا محكومون بالنهايات. أنت أيضاً محكوم بالنهاية. أنا جئتُ إلى هنا بحثاً عن العزلة، ثم جئتَ أنت، صرنا معاً اثنين يتمسكان بالزمن الحاضر، لكن الحلم يقترب من

النهاية. هل تدرك ذلك؟".

لم يعقب يان على كلماتها، شد على يدها، ثم أسند رأسها إلى صدره.

"أطفئ النور، أريد النوم، هناك ضجيج في الأسفل، اذهب وقل لهم إني أود النوم، أو فليأتوا إلى هنا لأخبرهم عن حاجتي للسكون".

تحرَّكَ يان خطوات نحو الباب، إلا أنه عاد واقترب منها حين نادت عليه. كان جسدها يرتعش تماماً وهي تحاول النزول من السرير. طلب منها بهدوء أن ترقد في سريرها، لكنها نظرت إليه بثبات، وجهها بدا مثل شمعة مستديرة تجرحها خيوط رفيعة، وتتوهج فيه عينان قويتان. قالت: "أتدري ما الذي أريده الآن؟".

أومأ يان برأسه وهو يقول: "بنفسج؟".

قالت: "البنفسج لأنه الأكثر قوة وهشاشة، لذا أحبه".

تنازعتها حالتان، الرغبة في المضيّ إلى أسفل، وعدم قدرتها على الحركة، جسدها كان كتلة مرتعشة، لكنها أرخت يدها عن يد يان أندريا، وأسندت رأسها إلى الوراء، ثم كررت طلبها في إسكات الأصوات الصادرة من الطابق السفلي.

"ابْقَ هنا، معي، حتى أنام.. ابْقَ هنا، لن أغفو وحدي".

أسندت مارغريت رأسها إلى الوسادة البيضاء الرقيقة، أغمضت عينيها في محاولة رشيدة كي تنام بعمق. ظل يان قريباً منها، غافياً، لكنه لم ينم، ظل بجانبها حتى غمرت العتمة المكان.

حين وعى، كانت مارغريت نائمة تماما.

* * *

من نافذتها تواصل زينب تأمل كل ما يدور حولها. حركة العصفور الذي يفرد جناحيه بفزع وهو يتنقل بين أسلاك عامود الكهرباء، الأشجار هرمة، السماء حادة الزرقة كما لو أنها جدار واسع لا حدود له، أو مكان ملائم لكرنفال عابث، الشوارع داكنة بشدة، منفصلة عن زرقة السماء الواسعة. تساقطت ريشات من جناح العصفور، لكنها تلاشت في الهواء تماماً، كما لو أنها لم تكن.

تريد أن تتكلم مع الله، أن توصل كلماتها إليه، تريد أن تسأله عن الغاية من غياب كل من تحبهم! عن الغاية من رحيل ساندرا المفجع! أين هي ساندرا الآن! في قبر رخامي بارد، في تابوت تحت الأرض، تسمع جنون الحرب ولا تقوى على الحراك.

بعد موت أبيها، كانت زينب تخاطب الله كثيراً، بحثاً عن أب.

لكن منذ أعوام طويلة توقفت عن التخاطب معه، ظلت قريبة منه لوقت طويل حتى اكتشفت أنها بعيدة جداً، معزولة في شرنقة من تخيلاتها وأوهامها عنه. عرفت أن عليها البحث من جديد عن طريق حقيقية توصلها إليه.ظلت لسنوات تفكر أن ذهابها إلى الجامع، وحضور دروس الدين، والاستماع لمواعظ الحاجة مني، وكل ما تقوم به من استسلام لإرادة أمها، وعدم الجهر بأي رفض هو نوع من الرضى، التماهي مع القدر، تَرْك دفة القيادة له. لكن هذا كله كان وهماً كبيراً. ظلت زينب حريصة على عدم تلويث طيبتها بأي ضغينة، لكن هزائمها الذاتية كشفت لها أن الطيبة وحدها لا تكفي لمواجهة الحياة. ثمة شيء تلاشى تماماً. تكسرت الجسور بينها وبين الله، وتوقفت عن مخاطبته كما كانت

تفعل في ليال كثيرة. ولم يَبْقَ معها من تلك المرحلة سوى حجابها الأبيض الذي صار جزءاً من ذاتها لأنها تحتمي به، كما لو أنه يقيم حاجزاً بينها وبين الآخرين.

أما الآن فها هي تعود لمواجهة كل تلك التساؤلات التي ظلت تتجاهلها لوقت طويل.

* * *

يان أندريا..

كل ما أكتبه يبدو بعيداً عن القصة الحقيقية. سأكتب حكايتكما من جديد، سأكتب عنكما وعني، وعن ابني الذي لم يأتِ بعد، ابني الذي سأعطيه قطعة شوكولا بالبندق، الأطفال يحبون الشوكولا، لكني فقدت القدرة على الاستمتاع بها منذ زمن طويل. هل تفضّل الشوكولا السوداء؟

الحرب وصلت إلى نهايتها....

يقولون إن الحرب وضعت أوزارها، وكما لو أن قافلة كانت تسير، ثم ألقت حمولتها على الأرض ، وتناثر كل شيء.... هل تنتهي الأمور بسهولة كما تبدأ؟

قبل الحرب كانت ساندرا هنا...

قبل الحرب لم أكتب لك كل هذه الرسائل. ولم أفكر كثيراً بك،

كنت على وشك نسيان قصتي القصيرة معك.

لكن الآن أشياء كثيرة تغيرت، الآن صرت أفكر في قصة مارغريت معك، أكثر مما أكتب عن حكايتي.

ثم لماذا أرهقك بكل هذه الكتابة؟

هل لأن الكتابة هي حاجتنا للهرب من العالم الغريق؟

رغبتنا في البوح بأشياء لم تحدث..

أشياء تفرحنا وتبكينا في لحظة واحدة.

يبدو من العبث أن تحيا بين أكثر من حالة، أكثر من مكان.. أكثر من كتاب.. أكثر من بيت، وقلب واحد مثقوب.

من العبث الذهاب والإياب بين سبع موجات، وسبعة أزمنة، كلها تغزل من خيط الآن، حيث الشمس التي أشرقت علينا مراراً تعرفنا جيداً. حيث الأرض رغم تغير قشرتها تبصرنا بعيون واسعة ويد مفتوحة.

إنها مسألة وقت. مسألة وقت ليس إلا.

كل التفاصيل مسألة وقت، حتى الموسيقى التي لم نسمعها معاً، ثمة عازف في مكان أعرفه ما زال يُعيد اللحن الذي صار مكروراً لأهل البلدة.

الكاتبة التي تحبها أنت، ماتت منذ سنين، وأنا ما زلت أفكر بها، وأبحث في تقاطعات أيامي مع أيامها، وأنت ما زلت تبحث في قصتكما المربكة. هناك أيضاً حيرتي الأبدية، الأسئلة التي لم أفكر بها، وأشياؤك

الصغيرة التي لم أعرفها بعد. ربما يكون كل هذا مسألة وقت.

لكن الآن، أريد الحياة، أريد الحياة بكل قوة، ما زال لدي الكثير لأفعله، لأقوله، لأكتبه.

* * *

صوت موسيقى. عزف بيانو يتسلل قوياً في هذا النهار، لكنه يتقطع في نغمات شاذة هذه المرة، صوت الموسيقى يحاصر البيت من كل الجهات، دقائق ثم تلاشى الصوت قبل أن تتمكن من معرفة مصدره.

البيت هادئ جداً، غادرت سريرها تبحث عن أمها، عن سامر، لكن كل الغرف فارغة، ما من أحد في البيت سواها. أين ذهبا في هذا النهار!

في مرآة الحمام، وهي تغسل وجهها، رأت وجهاً هادئاً، تطوف حوله أفكار ما زالت تحتاج لصياغتها كي تكون واضحة. لكن ثقة بريئة لمعت في عينيها وهي تفرك وجهها برغوة الصابون، وتفكر بأنها جادلت ذاتها كثيراً حول الوهم والحقيقة، حول الموجود والغائب. لكن هذا كله لم يشكل سوى جزء من الإجابات التي تبحث عنها.

دخلت إلى المطبخ، نظرت من النافذة، في شرفة المرأة العجوز وقف شاب مراهق، يرسل إشارات لفتاة في مثل سنه تسكن في مبنى مجاور، يحرك يديه مؤكداً أنه سيتصل بها. تابعتهما زينب وهي تضع غلاية القهوة على النار، ابتسمت في سرها، وأحست أنها جائعة قليلاً. كانت تشرب قهوتها وتأكل خبزاً طرياً مع مربى البرتقال، تفكر أنها ستغادر البيت بعد

قليل كي تذهب إلى بيت ساندرا لتجمع كل الصور التي التقطتها قبل موتها، ستختار الصور المناسبة لتقيم المعرض الذي أرادت صديقتها القيام به.

بعد أن ارتدت ثيابها، وهي تقف في الصالون لتغادر، رن هاتفها المحمول، كان أخاها سامر، صوته بدا فرحاً وهو يخبرها أنه موجود في بيتهم هو وأمه، وأن البيت يحتاج لكثير من الإصلاحات قبل أن يتمكنوا من العودة إليه. طلب منها القدوم لمساعدتهما، لكنها أجابته بحسم أنها لن تقدر لأن لديها أمراً هاماً يجب عليها فعله.

عيناها تطوفان في جدران بيت خالها، تتعلقان عند الأبواب، وعند الغرفة المغلقة على سرها العتيق. إذن... اقترب زمن مغادرتها لهذا البيت. سارت زينب نحو جهاز الكمبيوتر، كبست زر التشغيل، استغربت أنها لم تجد أياً من أوراقها البيضاء التي تتركها قرب الكمبيوتر، دخلت إلى غرفة النوم، تبحث عن الدفتر الذي تكتب عليه في العتمة، كانت الكوميدينو قرب السرير خالية إلا من الأباجورة الصغيرة، وروايات مارغريت دوراس.

على سطح الكمبيوتر، هناك كثير من الملفات التي تحتاج منها إلى قراءة قبل أن تقرر أو تعرف ما هي الصفحات التي كتبتها في الأيام الماضية، أو التي كتبتها قبل الحرب، أو إن كانت كتبتها حقاً. لكنْ هناك دفتر مفقود، لا تذكر أين وضعته آخر مرة، لأنها كانت تكتب أحياناً على الأوراق، أو لا تكتب وتفترض أنها كتبت. فتشت في الغرفة التي تنام فيها مع أمها، بحثت عن دفترها في الصالون، في أدراج غرف النوم،

حتى إنها دخلت إلى الغرفة المشؤومة ولم تجد شيئاً. لم تعرف كم مضى من الوقت وهي تفتش، لكن ينبغي عليها البحث من جديد. العثور على ما ضاع منها في ساعات الليل. حَسْم حقيقة الأمر، بين ما كتبته حقاً، وما افترضت فعله..

لكن ليس هناك وقت الآن، يجب أن تغادر، أن تذهب إلى بيت ساندرا، أن تجمع الصور في أسرع وقت. وتفعل ما كانت ساندرا ستفعله.

وهي تنزل الدرج المعتم، شاهدت شابين يتعاونان في حمل شيء ثقيل، وقفت في الزاوية تنتظر عبورهما. حين غادرت المبنى، رأت الشابين يضعان في المقعد الخلفي لسيارة جيب بيانو كبيراً أسود. ابتسمت وهي تسير في الشارع، كانت تردد في سرها:

"صوت الموسيقى كان حقيقة.

إنتهت